جَوْهَرَة التَّعْكَر



همدان زيد دمّاج

جَوْهَرَة التَّعْكَر

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر
القاهرة - ش الشيخ معروف من شارع
شمبليون عمارة ج-وسط البلد
تليفون: +20225743534
البريد الإلكترونى: arweqhhhh@gmail.com
Arweqahhfor@outlook.com
رقم الإيداع: 2016/27394
الترقيم الدولى: ISBN: 978-977-774-108-8

الطبعة الاولى
2017



همدان زيد دمّاج

جَوْهَرَة التَّعْكَر

رواية

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر وإعداد إدارة الشئون الفنية

دار الوثائق القومية

دمّاج، همدان زيد
جَوْهَرَة التَّعْكَر/ همدان زيد دمّاج – القاهرة: مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر 2016.
ص،سم.
تدمك: **978-977-774-108-8**
1-القصص العربية
أ-العنوان.
813
رقم الإيداع: **27394 /2016**

محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي مؤسسة أروقة وتوجهها؛ بل يعبر عن رأي المؤلف وتوجهه.

إلى أوسان

Memory is a child walking along a seashore. You never can tell what small pebble it will pick up and store away among its treasured things.

Pierce Harris

الذاكرة طفلٌ يمشي على الشاطئ، لا يمكنك أبداً أن تحزر أي الصدفات الصغيرة سيلتقطها، ويحفظها بين أشيائه الثمينة.

بيرس هاريس

كل الشخصيات الحقيقية والأحداث الواقعية في هذه الرواية من نسج الخيال.

0

تختبئ الأماكنُ والأزمنةُ في كهوفِ معطفٍ شتويٍّ مبتلٍّ، يتدثرُ فيه الماضي، وتتوارى في ثناياه الحكاياتُ والتفاصيل... يختفي بعضُها ويظهرُ بعضها الآخرُ دونَ إرادةٍ منا. لكأنَّ الذاكرَةَ وعاءٌ مملوءٌ بأشياء كثيرة؛ لكننا لا نرى سوى ما يطفو على سطحهِ، أما ما غاصَ في قعرهِ فهو لها وحدها، لا تشاركهُ أحداً إلا من أرادَ المجازفةَ والغوصَ في قعرِ الوعاء، دونَ أن يعرفَ أهميةَ ما غاصَ من أجلِهِ، ولا إمكانيةَ أن يطفو مرةً أخرى على السطح... حينها لن يكون، في مجازفتِهِ تلك، كمن لم يعرف شيئاً فحسب، بل كمن لم يكن على الإطلاق.

"اعلم إنه لتهبطن أرضكم الحبش، وليملكن ما بينَ أبين إلى جرش...".

الكاهن السبئي سُطيح التعكر

"التدخين حياة الأحرار يا مغفل!...".

العمدة

الفصل الأول

(1)

ظهيرة ذلك اليوم، كانت السماء ملبّدة بالغيوم؛ لكن لم يكن يبدو أنها ستمطر. كانت الرياح تهب بشدة أكثر من المعتاد، فلم يتمكن أهالي قرية **"ذي المجمرة"** من إكمال الحصاد؛ إذ كانت حبوب الذرة تتطاير بعيداً... حينها اشتكى **"العمدة"** من مغص في بطنه، وتكدر مزاجه كثيراً، وهو ما أتاح لأهل القرية سماع لعناته القاسية وهي تتعالى من الأزقة الضيقة...

أطلق الناس على النقيب(1) "محمد بن حمود قائد" لقب "العمدة"، على سبيل التندر والممازحة عندما اختير "عدلاً" للقرية قبل أعوام عديدة. أخذ الناس هذا اللقب من المسلسلات والأفلام المصرية التي داوم التلفزيون على عرضها منذ أن عرفته البلاد في منتصف سبعينيات القرن العشرين. وبمرور الزمن، أصبح لا يُعرف إلا بهذا اللقب، حتى أن بعض شباب القرية من الأجيال الجديدة المتكاثرة اكتشفوا، وهم يتجادلون في أحد الأيام، أنهم لا يعرفون

[1] النقيب: لقب قبلي وجمعه نقباء.

اسمه الحقيقي، كما أن أبناءه السبعة أصبحوا لا يُعرفون إلا بكونهم "أبناء العمدة".

كان العمدة يلعن كل شيء تقريباً، مستخدماً أقسى العبارات وأكثرها ابتذالاً؛ لكن دون أن تخلو من طرافته المعتادة، فقد كان مرحاً بطبعه، محباً للفكاهة والتندر، يمازح الجميع ويمازحه الجميع، ولا يغضبون من كلامه مهما كان قاسياً. وعلى الرغم من سلاطة لسانه وقدرته على نسف أبسط قواعد اللياقة متى شاء؛ كان شخصية يُعتمد عليها، يساعد الجميع دون تردد متى ما تطلب الأمر ذلك. والحق أنه كان قليل الخصومات، يخفق في صدره قلبُ ملاكٍ طيب، بسجية تلقائية ومتسامحة إلى حد بعيد، سريعاً ما تتلاشى بداخله زوابع الحنق والكراهية، وإن كان حبه للفكاهة والمزاح قد خفّ في السنوات الأخيرة، بسبب تقدمه في السن.

توجه العمدة نحو جامع القرية وهو ما يزال يهدر بلعناته اللاذعة. مرَّ من أمام بعض شباب القرية دون أن يلتفت إليهم، وقد رسم ببعض أصابع يده اليمنى النحيلة إشارات بذيئة لاستثارتهم، مستمراً في المشي بخطى سريعة، فما كان منهم إلا أن لحقوا به يمازحونه كما جرت العادة، متصنعين استياءهم مما صدر عنه من كلام معيب وحركات غير لائقة، وهو ما دفعه إلى معاندتهم

وإغاظتهم، فبدأ يصب جام لعناته على السماء، قبل أن يلتفت إليهم زاعقاً بكل صوته:

- أنتم يهود... يعني أبناء يهود...!!

تزداد ضحكاتهم وكركراتهم... وما يلبث أن يتدارك الأمر بخبث قائلاً:

- إيه... ليت آباءكم كانوا يهوداً.. يعني لأحسنوا تربيتكم...!

ويستمر شباب القرية في إغاظته وهم يتبعونه نحو الجامع، ويسألونه مازحين:

- وأنت يا عمدة...؟!

فيبتسم، وقبل أن يتأهب بحذر لنزول الدرجات الحجرية لفناء الجامع للوضوء من عين الماء التي تقع بالأسفل، وقد تعدل مزاجه بعد أن خف ألم بطنه قليلاً، يرد عليهم مازحاً:

- أنا نصراني... محترم... أما أنتم فحيوانات... يعني دواب...

يضحكون، فيلتفت إليهم وقد قاطع يديه واضعاً ظهر إحدى كفيه ببطن الأخرى مستهزئاً:

- هه!... صحيح "عيال نيذو"(2)...!

---

(2) المقصود "أولاد النيدو"، وهو استهزاء شائع يستخدمه كبار السن للدلالة على ضعف الجيل الجديد وسوء تصرفه بسبب رضاعته حليبا صناعيا.

يصيح به أحدهم مستفزاً:

- تقصد "نيدو" يا عمدة... "نيـدو"...!

فيلتفت العمدة لمصدر الصوت، وقد تضايق من التصويب، ليرد بقسوة كما هو متوقع:

- أقصد أمك يا ملعون...!

فيقهقه الجميع ضاحكين...

﴿2﴾

كان العمدة قصيراً جداً، ونحيلاً جداً، يمشي دائماً بخطوات سريعة ممسكاً عصى طويلة لا تتناسب مع قامته، يحملها معه تفاخراً أكثر منه احتياجاً. أسمر، عيناه صغيرتان غائرتان بفعل الزمن، يتمنطق جنبية "صيفاني"(3)، غالية الثمن، ورثها عن أبيه، تغطي نصف صدره ويصل رأسها إلى أسفل ذقنه، يحتفظ وراء غمدها بمستودع صغير من السكاكين والمقصات وشفرة حلاقة صدئة مع مرآة صغيرة، بالإضافة إلى قلم حبر ذهبي متهالك، وختم رسمي، مع محبرة صغيرة شبه جافة، يستعمله في تعميد الأوامر والإفادات الرسمية المختلفة واستمارات جباية الزكاة وعقود البيع والشراء، وعدد من المساويك وإبر الخياطة وملاخيخ(4) الأسنان متعددة الأحجام وبعض أقراص النعناع... حتى ليكاد المرء يشك في قدرة ذلك الحيز الصغير على استيعاب كل تلك الأشياء.

---

(3) الجنبية: الخنجر اليمني، وجمعها جنابي، ويعتبر النوع الصيفاني من أغلى الأنواع.

(4) الملاخيخ: الخلال، الأعواد الخشبية المستخدمة لتنظيف الأسنان.

لم يكن العمدة يغير نوع ملبسه على مدار العام وتعاقب الفصول... ثوبان أبيضان يلبسهما بعضهما فوق بعض، وفوقهما فانلة بلا أكمام. تغطي قدميه وساقيه النحيلتين جوارب عادة ما تكون سوداء ترتفع إلى ما تحت ركبتيه. ينتعل حذاءً ثقيلاً "شيكي"(5) مقاس الأطفال، ويضع على رأسه دائماً "قُبعاً"(6) متعدد اللفات يكاد أن يُخفي تماماً رأسه الصغير... وعلى الرغم من ضآلته التي كانت محل تندر ممازحيه، وتلك التوليفة العجيبة من الملابس، كان العمدة يبدو على الدوام نسخة مصغرة لشيخ أنيق ذي هيبة وبهاء.

في السنوات الأخيرة، بعد أن ماتت زوجته، أصبح فم العمدة خالياً من الأسنان، إلا من إحدى قواطعه العلوية بقيتْ لتبرز كلما فتح فمه؛ لكنه سرعان ما اقتلعها بعد أن صارت محل تندر ممازحيه. كان يملك صوتاً حاداً مميزاً، ولا تخلو عباراته عادة من كلمة "يعني"؛ يقولها بعفوية وبصوت مرتفع يشد به انتباه سامعيه. وباستثناء نظره الذي ضعف، كان يتمتع بصحة جيدة على الدوام، ولا يتذكر أحد من أبناء القرية أنه كان قد اشتكى من المرض في يوم من الأيام،

---

(5) شيكي: اختصار لكلمة "تشيكي"، وهو نوع من الأحذية انتشر بين اليمنيين في فترة الستينيات والسبعينيات من القرن المنصرم.

(6) القُبع: عمامة يلبسها أبناء القبائل.

حتى الوعكات الصحية النادرة التي كانت تصيبه لم تكن تصمد كثيراً أمام جهازه المناعي العنيد، هذا بالرغم من كونه مدخناً نهماً، يحمل معه دائماً علبة سجائره المفضلة من ماركة "روثمان" ذات التبغ الثقيل، مردداً دائماً شعاره الخالد الذي لا يعرف أحد من أين اقتبسه: "التدخين حياة الأحرار". لم يكتف بتدخين السيجارة، بل كان مدمناً أيضاً على تدخين "المداعة" (النرجيلة)، خاصة إذا كان التبغ من النوع "الحُممي" أو"البُشاري"، ولا يمانع إذا ما سنحت الفرصة بمشاركة من تبقى من أهالي المنطقة من كبار السن في تدخين "المشرعة"(7) بتبغها المحلي القوي ذي الرائحة الكريهة... أما إذا ما عاتبه أحدهم، وخاصة من أبنائه، على إفراطه في التدخين فدائماً ما كان يرد جازماً:

- سأظل أدخن حتى الموت... يعني لو كان هناك شيء آخر ملعون اخترعوه لدخنته... صدقني... التدخين حياة الأحرار يا مغفل...!

(7) المشرعة : غليون تقليدي طويل.

﴿3﴾

قبل أربعة أعوام ويومين تماماً، في مثل ذلك الوقت من الظهيرة، وبينما كان العمدة يصعد درجات الجامع شديدة الانحدار، بثياب شبه مبلولة، وبمزاج سيئ، بعد أن انتهى من الوضوء في عين الماء، بطقوسه التي كانت أقرب إلى الاغتسال منها إلى الوضوء، اصطدمت –عن غير قصد– عصاه، التي صادف أن كان مستنداً عليها، بقدم "عبده ثام"، ابن "مرشد النجار"، وكاد أن يسقط إلى الأسفل قبل أن يستعيد توازنه في آخر لحظة.

كان "عبده مرشد" شاباً في منتصف العقد الثالث من عمره، له قلب طفل، وسيماً، مفتول العضلات، بوجه أسمر لفحته الشمس. عندما قرر أن يترك المدرسة قبل أعوام عديدة ويصبح مرافقاً عسكرياً لأحد الضباط من أهالي القرى المجاورة لم يهتم أحد بقراره، حتى والده لم يكلف نفسه عناء اللوم، على الرغم من حرصه على أن يكمل أبناؤه تعليمهم، منافسة لأبناء عمومتهم؛ ذلك أن عبده كان قد أثبت عجزه التام عن استيعاب المزيد من الهراء الذي كان

يقوله أساتذته، مكتفياً، مثل الكثيرين من أبناء جيله، بقدرة محدودة على القراءة، وبخط رديء مليء بالأخطاء الإملائية.

منذ عدة أشهر عاد "عبده مرشد" إلى القرية ليساعد أباه وأسرته في فلاحة الأرض، بعد أن ازدادت الفوضى في المعسكرات، وأصبح الضباط يمنحون الإجازات لمعظم الجنود علناً مقابل الحصول على نصف مستحقاتهم. ولأنه كان يتأتئ في النطق منذ صغره، أطلق عليه أقرانه اسم "عبده ثام"، ليصبح اسمه المعروف به حتى اليوم. أما ماذا تعنيه كلمة "ثام" فذلك ما لا يستطيع أحد أن يجزم به، فهي كغيرها من كلمات كثيرة يشتقها أهالي قريتنا ويتداولونها دون أن يعرفوا معناها الحقيقي. وحده العمدة يستطيع كعادته أن يختلق تفسيراً لأي شيء:

- الـ"ثام" هو رأس الثوم الأعوج، لهذا سُمي عبده مرشد بهذا الاسم، يعني لأن رأسه أعوج...
- لكن رأس عبده ثام ليس أعوج يا عمدة...!

عندها يلتفت العمدة نحو مصدر الصوت وقد ضايقته هذه المقاطعة، قبل أن يضيف بتهكم:

- أعوج من الداخل... يا ملعون..!

* * *

لم يتمالك المصلون أنفسهم من الضحك وهم يشاهدون الموقف ووجه العمدة المكفهر ونظراته الحادة، ويسمعون عواءه

وسبابه المقذع ولعناته المعتادة التي تطال كل شيء. ثم ما لبث المشهد أن أصبح أكثر درامية عندما بدأ العمدة يهوي بعصاه على رأس "عبده ثام"، الذي كان ما يزال يضحك كالآخرين، وهو ما اعتبره العمدة وقاحة زائدة عن الحد، معتقداً أن الأمر كان متعمداً، فواصل ضربه بالعصا. توقف "عبده ثام" عن الضحك ثم بدأ بالتذمر، خاصة بعد أن بدأ الحاضرون يضحكون عليه الآن. لكن العمدة، ربما سهواً، لم يتوقف عن الضرب، وقد علا سبابه أكثر من أي وقت مضى، فما كان من "عبده ثام"، وقد آلمته الضربات المتكررة على رأسه، إلا أن أمسك بالعصا بقوة، فاختل توازن العمدة وكاد أن يسقط مرة أخرى من على درجات الجامع...

هبَّ بعض المصلين للتدخل؛ لكنهم كعادتهم كانوا قد انقسموا فيما بينهم... منهم من يؤيد "عبده ثام"، محاولين أن يهدئوا العمدة، ومنهم من اعتبر الأمر وقاحة ضد العمدة، فقاموا يتشاجرون مع "عبده ثام". واحتد المشهد بعدما تدخل "مرشد النجار"، الذي كان صامتاً حتى ذلك الحين، وهو يرى ابنه وقد شمر عن ساعديه القويين في وجوه الحاضرين من أبناء العمدة الذين تحلقوا عليه.

عمل "مرشد مسعد" في صباه، ولفترة مؤقتة، في ورشة نجارة في مدينة تعز، ومنذ ذلك الزمن عُرف بـ"النجار"، خاصة بعد أن عاد إلى القرية بمبلغ من المال لا بأس به، وبكفٍّ تنقصها ثلاثة أصابع. ومنذ ذلك الوقت مكث في القرية لا يكاد يغادرها، وأصبح أحد معالمها الثابتة التي لا تفارقها، مواصلاً بدأب منازعة الجميع على أتفه الأمور، مختلقاً شتى المبررات لمشاجرات لا تنتهي، كما لو كان معنياً بطرد الرتابة اليومية من حياة القرية. صحيح أن معظم هذه المنازعات كانت سلمية، وعادة ما تنتهي دون خسائر كبيرة؛ إلا أن بعضها، خاصة تلك التي كانت تنشب بينه وبين أبناء عمومته، كادت أن تكلفه حياته، ودفع بسببها أثماناً باهظة، كان آخرها واحدة من تلك الخصومات المتوارثة، عندما تنازع مع عمه "غالب" على ملكية شجرة "طلح" نبتت في الحد الفاصل بين حقليهما... دفع الكثير من المال لعدد كبير من المحكمين الذين كانوا يقضون دائماً بعدم أحقيته بالشجرة. ذهب إلى الحكومة فلم ينفع الأمر أيضاً... ولم يقتنع أبداً إلا بعد أن تم حبسه شهرين وتغريمه الكثير من المال بعد أن قام باقتلاع تلك "الطلحة" والاعتداء بعنف على عمه منهالاً على رأسه بأحد أغصانها.

في ساحة الجامع احتدم الخلاف وكاد أن يتحول الشجار إلى عراك بالأيدي بعد أن انضم إلى الجوقة آخرون، لولا أن تدخل

"كريم" في الوقت المناسب بعد أن أقحم نفسه وسط المتعاركين، وفصل بينهم، معاتباً، ومذكراً الجميع بأن وقت الصلاة قد أزف منذ لحظات... عندما رآه العمدة ابتسم بارتياح، وتلطف مزاجه، فقد أسعده خروج "كريم" من عزلته ومجيئه إلى الجامع كما في السابق.

كان الجميع، بلا استثناء، يحترمون "كريم"، ويستمعون له، وما هي إلا لحظات حتى ساد الهدوء وكأن شيئاً لم يكن. توجه العمدة إلى مكانه المعتاد في الصف الأول؛ غير أن الجميع؛ كنوع من المراضاة، دفعوا به نحو قِبلة الجامع ليؤمهم في الصلاة. وقف العمدة متكاسلاً في القبلة بعد أن عدّل وضع عمامته، ثم التفت إلى الخلف نحو أقدام المصلين متذمراً كعادته، قبل أن يزعق بصوت مبحوح وقد لمح "عبده ثام" ووالده "مرشد النجار" في الصف الأول:

- ساووا الصفوف... إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج... يا عوووج...

وعلى الرغم من أنه كان قد قال الكلمة الأخيرة متمتماً، إلا أن ضحكات من سمعوها بدأت ترتفع همساً من هنا وهناك قبل أن ينتظم الجميع بهدوء مكبرين تكبيرة الإحرام وشرعوا في الصلاة ناسين كعادتهم الشجار الذي دار قبل قليل، دون أن يعرفوا حينذاك أن هذه كانت آخر مرة سيرون فيها "كريم" قبل أن يجدوه ظهيرة اليوم التالي مقتولاً في منزله.

4

كان فجر ذلك اليوم شديد البرودة؛ لكن أحداً لم يأبه لذلك، فقد كان الجميع مشغولين بإجراءات الدفن... حتى أولئك الذين لم تُسند إليهم أي مهمة محددة كانوا لا يفتؤون يهرولون من مكان إلى آخر، دون أن يثبط عزيمتهم تجاهل القائمين على الجنازة، الذين كانوا بدورهم في أشد القلق والتوتر خوفاً من التقصير في ترتيباتها. لم يكن أحد من أبناء القرية يتوقع هذا الاهتمام الكبير بالجنازة، بل إن "الشيخ راجح العارض" كان قد وصل بالأمس، بعد المغرب بقليل، من مقر عمله في العاصمة، ليشرف شخصياً على إجراءاتها.

لم يكن أحد من أبناء القرية يعرف لماذا كان بعض المعزين قد وصلوا للتو من أماكن بعيدة في مثل هذا الوقت الباكر! لكن ما عرفه بعضهم هو أنه في ساعة متأخرة من عصر أمس الكئيب، كان أطفال القرية، كما هي عادتهم، قد تجمهروا حول سيارة فارهة لم ترها القرية من قبل، توقفت في ساحة القرية قبل أن تنزل منها امرأة توجهت بمفردها، ودون أن تسأل أحداً، نحو بيت "كريم"،

بينما ظل سائقها الأنيق في مقعده هادئاً، ينظر بين الحين والآخر في المرآة، ويرقب بحذر الصبية الذين كانوا ما يزالون متجمهرين حول السيارة.

كان العمدة قد راقب من سطح منزله دخول السيارة بهيكلها النظيف اللامع إلى ساحة القرية، وعندما توقفت هرع بسرعة متوجهاً إليها وقد غمره الفضول، إذ لم تكن هذه سيارة الشيخ العارض التي يعرفها. "هل صرفوا له الملعون سيارة جديدة؟! وكيف تمكن من الوصول بهذه السرعة، فهو لم يعلم بالخبر إلا قبل ساعتين؟! ليته هو على أية حال!". خطرت في ذهن العمدة هذه الأسئلة وهو يمطُّ شفتيه ويستنشق هواء الساعة الرابعة والنصف المنعش، مسرعاً في مشيه بدون تركيز وقد نسي أن يأخذ عصاه...

كان من النادر جداً أن يتواجد العمدة على سطح منزله في مثل هذا الوقت من النهار، الذي يقضيه عادة في مقيله الصغير، يمضغ على مهل أوراق "القات" الرطبة بجانب "مداعته" الأثيرة، يلوكها بلثته المتصلبة بعد أن تساقطت معظم أسنانه، رافضاً أن يركّب طقم أسنان أو حتى أن يستخدم الخلاطة اليدوية التي اشتراها له أحد أبنائه.

كان المقيل عادة ما يكتظ بالجلساء من شباب وأهالي القرية، أو القرى المجاورة، خاصة أولئك الذين لم يكن على

خلاف معهم؛ إذ كان، وبلا تردد، يقوم بطرد أي شخص غير مرغوب فيه من المقيل، غير آبه لاعتراض أبنائه، ولا معيرٍ أي اهتمام للأعراف والتقاليد السائدة التي تعيب على الرجل طرد أي شخص من مقيله، حتى لو كان من ألد أعدائه. لكن العمدة لم يكن من أولئك الذين تستوقفهم العادات والتقاليد دائماً... وللإنصاف لم يكن للعمدة أعداء بالمعنى الحقيقي للكلمة؛ ذلك أن خصوماته عادة ما تكون مؤقتة، حتى أولئك غير المرغوب بوجودهم في المقيل كانوا يتجاهلون طرده لهم ولا يأخذون الأمر على محمل الجد، ويجلسون في أماكنهم المعتادة في المقيل بشكل عفوي، الأمر الذي كان يؤدي في النهاية إلى عودة المياه إلى مجاريها.

لكن ذلك اليوم كان استثنائياً؛ إذ لم يكن العمدة في مقيله المعتاد، ولم "يخزّن"(8)، حتى أنه لم يتناول غداءه جيداً؛ إذ كان يلوك الطعام ببصر زائغ، وظلَّ طوال اليوم يهيمُ متوتراً وحزيناً في أزقة القرية بخطى متثاقلة، وقد شعر بمغص في معدته، ينصت لوشوشة وقع حذائه على حصى طرقات القرية، متردداً بين سطح منزله، والجامع، ومنزل "كريم" الذي رآه قبل ساعات فقط جثة هامدة غارقة في دمائها.

---

(8) يمضغ أوراق القات.

عندما وصل إلى السيارة كانت المرأة قد دخلت منزل "كريم" وأخذت مكانها بجانب العمة "كُرامة" التي لم تكن قد استوعبت هول ما حصل لها، فشغلها بكاؤها المجروح على ابن أخيها القتيل عن طرح أسئلتها المعتادة لأي غريب تراه في القرية. كانت تتقبل كلمات العزاء من هذه المرأة، التي لم تتعرف إليها بعد، بفكر مشتت، حتى أنها نسيت أن تسألها عن اسمها، أو من أين هي. نساء القرية أيضاً نسين أن يفعلن ذلك، اعتقاداً منهن أنها إحدى قريبات العمة "كُرامة"، وعندما أدركن جميعاً، بعد يومين، فداحة خطأهن التاريخي النادر، أصبحن منذ ذلك الحين، ولزمنٍ طويل، يطلقن على تلك المرأة اسم "زينب"، دون أن يتذكرن على وجه الدقة من أطلق عليها هذا الاسم أول مرة، أو لماذا، ولا ما إذا كن قد عرفنها من قبل!

ظل العمدة لسنوات يتحدث عن مدى إعجابه الشديد بجمال "زينب" التي رآها تغادر منزل "كريم" بعد أقل من ساعة بصحبة بعض النسوة، اللواتي أخذهن الفضول نحوها مثله تماماً. كان يتلذذ بوصف وجهها الأبيض الجميل الذي ظهرت معالمه الفاتنة من خلال نقابها الشفاف، والذي بدا للوهلة الأولى مألوفاً بالنسبة له. العمدة لا ينسى أبداً أن يذكر أيضاً سائقها "النزق"، حسب وصفه، الذي كان قد رفض أن يبادله الحديث أو أن يجيب على استفساراته

عن تلك المرأة، مكتفياً ببعض الجمل القصيرة المقتضبة التي لم يتذكر منها شيئاً، وكيف أن ذلك السائق أيضاً رفض أن يعطيه "كوفيته" المزركشة مقابل مسبحة "اليُسر" التي عاد بها من الحج قبل عامين...

- لم أكن لأقايض بالمسبحة أي شيء، *صدقوني*... هي عزيزة عليّ جداً... أهداها لي واحد نصراني تصادقت معه هناك.

- لكن لا يوجد نصارى في مكة يا عمدة...

ينظر العمدة بسخرية نحو الصوت الذي قاطعه، ويقول جازماً:

- هه!... ومن قال لك ذلك يا ملعون؟!...

ثم يبتسم بخبث، وقبل أن يسمح بأية اعتراضات جديدة، يكمل كلامة بسرعة، وقد عاد بممازحيه إلى الموضوع الأصلي:

- غير أن الكوفية "الزنجبار" تلك كانت رائعة... يعني دخلتْ نفسي... لكن ماذا أقول؟! كان خنزيراً ذلك النزق... ملـعـــــ...

وقبل أن يكمل جملته يقاطعه أحدهم بلؤم:

- ملعون...!

فيرد العمدة مؤكداً:

- نعم... ملعون... يعني مثلك تماماً!



تقع قرية "ذي الجمرة" على تخوم أحد أكبر شلالات "عزلة(9) النقيلين" التي تحتل الجهة الجنوبية لجبل "التّعْكَر"، والتي تمتد قراها الإحدى والعشرين من أسفل الجبل، على أطراف وادي "نخلان" الخصيب، حتى قمته الباردة، حيث ما تزال أطلال الحصن التاريخي الشهير موجودة حتى اليوم.

كان حصن التعكر من أهم حصون اليمن وأقدمها، يشرف مباشرة، من جهة الشمال الشرقي على مدينة "جبلة"، عاصمة اليمن أيام الدولة الصليحية، ويطل، من ارتفاع ثلاثة آلاف متر فوق سطح البحر، على طريق البريد والقوافل المسافرة شمالاً إلى صنعاء، وجنوباً إلى تعز وعدن. كان قد سكن الحصن، قبل أكثر من ألف وأربعمائة وخمسين عاماً، كما يروي الإخباريون، راهب سبئي ذو كرامات يدعى "سُطيح التعكر"، والذي منه، كما يقال، أخذ الجبل اسمه. تقول الأساطير إنه عاش طويلاً وكان قادراً على استشراف

---

(9) العزلة: تقسيم إداري لمنطقة تشمل مجموعة من القرى.

المستقبل والتكهن بالآجال، كما كان باستطاعته تحريك السحاب والرمال والتحكم بنزول الأمطار، وأن الصخور كانت تنصاع لأوامره، فيشكلها كما يشاء، ويعجنها كما يريد، وما تزال آثار كفيه وأقدامه مطبوعة على الصخور في قمة الجبل، حيث تقع أطلال الحصن ومدافن الغلال الصخرية، بعقودها الحجرية المتداخلة التي امتلأ قاعها بالحجارة عبر السنين.

يروي الإخباريون أن ربيعة بن نصر، أحد ملوك التبابعة، رأى رؤيا هالته وأقلقته كثيراً، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا منجماً من أهل اليمن إلا دعاه إليه، مخبراً إياهم: "لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها". عندها قال أحدهم: "إن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سُطيح، فإنه لا أحد أعلم منه"، فأرسل إليه، فكان رد سُطيح: "رأيتَ حممة، خرجتْ من ظلمة، فوقعت بأرض تهمة، فأكلت منها كل ذات جمجمة"، فقال له الملك: "قد صدقت، فما يكون من أمر ذلك؟" فأجابه سُطيح: "اعلم أنه لتهبطن أرضكم الحبش، وليملكن ما بين أبين إلى جرش، وهو بعد زمان الملك بحين، أكثر من ستين أو سبعين من السنين، ثم ينقطع ملكهم ويُقتلون ويُخرجون... يكون ذلك على يد إرم بن ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحداً منهم في بلاد اليمن، ثم ينقطع سلطانه على يد نبي ذكي، يأتيه الوحي من العلي".

بلغت شهرة الراهب سُطيح وقدراته الخارقة كل البقاع، وكان يستقبل زواره من أماكن بعيدة، يأتون إليه، رجالاً ونساء، لشتى الأغراض، كالتداوي من أمراض استعصى علاجها، أو فك السحر والطلاسم، وطرد الجن من رؤوس الممسوسين، وصنع مختلف الرُّقى والتمائم، وقراءة الطالع والتنبؤ، وتحريك السحب الممطرة إلى مواطن القحط والجفاف... إلى آخر تلك الأمور التي كانت شائعة في ذلك الوقت، والتي ما يزال بعضها منتشراً حتى الآن.

يروي الإخباريون أن من أولئك الزوار كانت هند بنت عتبة، إحدى أشهر نساء العرب في ذلك الوقت، المرأة التي سيحتفظ التاريخ بصورتها كواحدة من أكثر عرب قريش عناداً ومحاربة لنبي الإسلام محمد. جاءت من مكة إلى سُطيح مع أبيها وزوجها وبعض من أهلها لإثبات براءتها بعد أن رماها زوجها بالخيانة.

﴿6﴾

كانت "ذي المجمرة" من أصغر قرى "النقيلين" وأكثرها هدوءاً وعزلة. تقع في منتصف جبل التعكر تقريباً، محتضنة لـ"دار البخور" التاريخية التي أصبح يقطنها "آل العارض" منذ مائة وخمسين عاماً. كانت الدار عبارة عن مبنيين مقضضين بـ"النورة" البيضاء، الأول مربع الشكل بأدواره الخمسة مخصص للسكن، والثاني مستطيل واسع من دورين، خُصص الدور الأول منه "سَفِلْ" (اسطبلاً) للحيوانات. أما الدور الثاني فكان عبارة عن "مفرج" كبير متعدد النوافذ، له حجرتان وحمّام، يصعد إليه الزوار عن طريق درج خارجي. كان "السَفِلُ" واسعاً، بعقود متداخلة تشكل أعمدتها غرفاً متقابلة، أوسعها كانت مخصصة قديماً للخيل بجانب غرفة مدافن الحبوب المنحوتة في الصخر. أما الأبقار والأغنام فكانت في الجهة المقابلة، حيث توجد أيضاً "ديمات" صغيرة مخصصة للدجاج وللأرانب، التي كانت منتشرة بكثرة في الدار قبل أن يمنع الشيخ العارض تربيتها؛ ليس لأنها تضر

بأساسات الدار كما هو شائع، بل لخوف استوطنه من صغره عندما سمع ذات يوم أصواتها المرعبة المستغيثة وهي تُذبح.

لما انتشر خبر اتهام هند بين أهل مكة، توجه أبوها عتبة بن ربيعة، أحد أسياد مكة، مكفهر الوجه، إلى زوجها، الفاكه بن المغيرة، وقال له: "إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم وعار كبير لا يغسله الماء، وقد جعلتنا في العرب بمكان ذلة ومنقصة، ولولا أنك مني ذو قرابة لقتلتك؛ ولكن سأحاكمك إلى كاهن اليمن، فحاكمني إليه".

يقول الإخباريون إنه ما إن لاحت مشارف حصن التعكر، بعد رحلة طويلة وشاقة، حتى استولى القلق على هند، فأسرت لأبيها: "إنما سُطيح هذا بشرٌ، يخطئ ويصيب، وإني لأخشى أن يخطئ فيّ بقولٍ يكون عاراً علينا إلى آخر الدهر". لكن عتبة، وقد راودته تلك المخاوف أيضاً، كان قد اهتدى إلى حيلة يختبر بها ما شاع عن قدرة سُطيح على التنبؤ، فقام -كما تقول الحكايات- بإخفاء حبات قمح صغيرة في إحليل المهر.

كان سُطيح نائماً عندما دخلوا عليه غرفته التي يقابل فيها زواره. ظل الجمع صامتاً لفترة من الوقت، إذ لم يتجرأ أحد على إيقاظه... وما إن همَّ عتبة على ذلك حتى أفاق سُطيح

فجأة، وبسرعة استوى على مجلسه، وباغت هند بنظرات حادة لم يزحزحها عنها أبداً. شعرت هند بالقلق، وساورتها المخاوف من جديد وأسرّت إلى نفسها: "ما لهذا الكاهن ينظر إليّ هكذا؟". كسر عتبة الصمت الذي خيم على المكان موجهاً حديثه إلى سُطيح: "أيها الكاهن... قد جئناك من مكة في أمر لا أدعك تتكلم فيه حتى أتبين صدقك، فإني قد خبأت لك خبيئاً فانظر ما هو، وأخبرنا به"، فرد سُطيح وهو ما يزال ينظر نحو هند: "ثمرة في كمرة"، فقال عتبة: "أريد أبين من هذا"، فقال سُطيح: "حبات بُر في إحليل مُهر"، فقال عتبة وقد انشرح صدره: "صدقت". وما إن همَّ عتبة بشرح سبب مجيئهم حتى قاطعه سُطيح رافعاً يده، وهو ما يزال ينظر إلى هند، قائلاً: "أعلم ما جئتموني من أجله"، ونهض من مجلسه وغادر الغرفة، ثم ما لبث أن عاد بعد فترة وفي يده لفافة من الجلد أعطاها لهند، وهو ينظر مباشرة في عينيها وقد قطب حاجبيه قبل أن يقول لها: "هذا لكِ وحدك، لا ينظر إليه غيرك"، ثم عاد إلى مجلسه وقد بدا أكثر ارتياحاً. أما هند، التي لم يفارقها القلق حتى تلك اللحظة، فكانت على موعد لمفاجأة عظيمة، إذ لم يقم سُطيح بتبرئتها من التهمة التي رماها بها زوجها فحسب، بل أطلعها على مستقبل عظيم ينتظرها ما كان ليخطر على بالها، ولا على بال من رافقوها في تلك الرحلة الشاقة، قائلاً لها: "إنما أنتِ امرأةٌ ذات شأن، ولسوف يأتي من نسلكِ ملوكٌ عظام يقيمون الدنيا ولا يقعدونها".

يقول الرواة إن زوجها حين سمع كلام الكاهن تهللت أساريره وجاء إليها متودداً؛ لكنها نهرته، قائلة بحقد: "إليك عني! والله لا يجمع رأسي ورأسك وسادة... ولا أجعلهم من نسلك أبداً". وهكذا فارقته ليتزوجها من بعده أبو سفيان بن حرب.

في طريق العودة إلى مكة، اختلت هند بنفسها، وفتحت اللفافة التي أعطاها سُطيح، ولم تفهم شيئاً مما احتوته من رموز وطلاسم، فطوتها ووضعتها بعناية في صدرها معتقدة أنها تعويذة أو حرز من نوع ما. بعد ذلك بأعوام عديدة، وبالتحديد بعد ستة وعشرين عاماً من ظهور الإسلام، ماتت هند بعد حياة حافلة بالأحداث، دون أن تعرف أن نبوءة سُطيح الراهب ستتحقق، وأن ابنها معاوية سيصبح أول خلفاء الدولة الأموية، ومؤسساً لسلسلة من الملوك من نسلها سيحكمون بلاداً واسعة ما كان يحلم بمثلها مَلِكٌ عربي في ذلك الوقت.

7

كان المبنيان في "دار البخور" منفصلين يربط بينهما مسجدٌ صغير بقبةٍ بيضاء يقع في وسط باحة توزعت على أرجائها أشجار طلح باسقة، ويحيطها جميعاً سورٌ حجري مرتفع من الجهة الشمالية، ومنخفضٌ من الجهة الجنوبية. كانت الدار، بسورها الذي تهدمت صفوفه العلوية المزخرفة في بعض الجهات، تربض فوق أكمة عالية تطل من الغرب على بيوت القرية، الأربعة والثلاثين، وينحدر من تحت سورها الجنوبي المنخفض أحد فروع الشلال، حيث نمت "طولقة" عملاقة مدت أغصانها فوق السور. في الليالي الصافية يستطيع المرء أن يرى من طوابق الدار العليا أضواء تعز وقراها المنتشرة على السفوح الشمالية لجبل "صبر" الذي ترتفع قمته العالية موازية لقمة جبل التعكر وبقايا حصنه الشهير.

تهدم حصن التعكر وأعيد بناؤه مرات عديدة عبر الأزمان. في إحدى الفترات من التاريخ أصبحَ الحصنُ، بهندسته الفريدة ومخازنه المنحوتة في الصخر منذ القدم، المقرَّ الصيفي للسيدة "أروى"، أشهر ملكات العرب بعد

الإسلام، ومخزناً رئيسياً لذخائر دولتها الصليحية، حتى إذا ما جاء الشتاء نزلت منه إلى "دار العز"، مقر إقامتها في مدينة "جبلة"، لتعود إليه في الصيف مرة أخرى. كان ذلك قبل أن تَقبَل، على مضض، تركه لقائد جيوشها "المفضل ابن أبي البركات"، الذي ألحَّ عليها بطلبه الانتقال إلى الحصن ليكون مقراً دائماً له. وعلى الرغم من انتقال "المفضل" مع أسرته وحاشيته للعيش في الحصن، كما كان يحلم منذ زمن بعيد؛ إلا أنه، وهو رجل الدولة الذي لا تنقصه الفطنة، ظل متوجساً من هذا الأمر، يبالغ في لوم نفسه بصمت، مطأطأ الرأس يفكر بعمق: هل تسرّع يا ترى في إلحاحه على الانتقال إلى الحصن؟! ولماذا لم تعد "السيدة" تستقبله بالحفاوة المعتادة وهو من أكثر المقربين إليها ومستشارها الأمين؟! هل سيتبادر الشك إلى ذهنها؟! هل كان عليه أن يكون أكثر حذراً؟!...

﴿8﴾

كانت "دار البخور" تحفة معمارية رائعة؛ لكنها لم تكن المعلم الوحيد الذي يميز القرية؛ فعلى مسافة غير بعيدة منها، وعلى بعد مائتي متر من منحدر الشلال، تقع على مجرى السيل المنحدر من أعلى الجبل عين الماء المشهورة التي تُعرف بـ"الجوهرة"، يصل إليها أهالي القرية عبر درجات حجرية تهبط من فناء الجامع الصغير الذي يتوسط القرية ببنائه الحجري المطلي بـ"النورة" البيضاء.

لم يكن يخطر ببال "المفضل بن أبي البركات" أنه سيموت حزناً وكمداً؛ فلطالما تخيل نهايته على سرير المُلك، أو إثر طعنة رمح في إحدى المعارك المفاجئة أو الحروب التي لم يعد مؤخراً يرغب في خوض غمارها. عندما توجه آخر مرة نحو الغرب التهامي، على رأس حملة عسكرية لمحاصرة "النجاحيين" في "زبيد"، كان يأمل أن يحظى برضى الملكة "أروى" من جديد، وأن يطوي صفحة ما طرأ من خلاف غير معلن بينهما منذ انتقاله إلى حصن التعكر، بل وقد يتجرأ، كمغامرة أخيرة، بطلب الزواج منها مرة أخرى، بعد

أن رفضته من قبل على الرغم مما كانت تبديه له من ميول وتوهمه بالقبول... أو على الأقل هذا ما كان يعتقده.
كان "المفضل" يعرف أهمية هذه الحملة، التي لم يكن مخططاً لها، فلم تكن الدولة الصليحية مؤهلة في ذلك الوقت لخوض حرب مع "آل نجاح" الذين كانوا يشكلون تهديداً دائماً لها، لولا المصادفة التي ما كان للملكة "أروى" أن تتجاهلها دون أن تستغلها لصالحها. يروي الإخباريون أن أمراء "آل نجاح" من أبناء "جياش" اختلفوا فيما بينهم واقتتلوا، فجاء منصور بن فاتك إلى الملكة "أروى" يعرض عليها ثلث ريع "زبيد" إن هي ساعدته ونصرته على عمه عبد الواحد بن جياش، فوجدت الملكة فرصتها لتهدئة جبهة تهامة المشتعلة، فوافقت على عرضه وأرسلت معه "المفضل" على رأس جيش كبير.
طال حصار "المفضل" لمدينة "زبيد" بعد أن أظهر أبناء "جياش" مقاومة عنيدة، واستبد به القلق والتوتر، خاصة بعد أن ازدادت حالات الوفاة بين جنوده بسبب الحمى التي انتشرت في صفوفهم؛ لكنه بعد شهرين وثلاثة أيام استطاع أن يدخل "زبيد" ويسجل انتصاراً ملحمياً لن يكتب التاريخ عنه الشيء الكثير. لم يمكث "المفضل" في "زبيد" كثيراً، فقد كان متشوقاً للعودة لمقابلة الملكة وقد عزم في قرارة نفسه أن تكون تلك الحملة هي آخر حروبه.

في طريق العودة كانت نسمات الجبال، القادمة من الشرق، تنعش آماله من جديد وتخفف عليه وطأة الحمى

التي اعترته، دون أن يعلم أن "ابن زيدان" كان قد انقلب
عليه واحتل حصن التعكر منذ فترة.

﴿9﴾

كانت "الجوهرة" أكبر عين ماء في المنطقة، لا ينقطع ماؤها أبداً، حتى ولا في الشتاءات الأكثر جفافاً. يستخدم أهالي القرية ماءها للشرب والوضوء وغسل الملابس، بينما يستخدمها أهالي القرى الواقعة أسفل الشلال لسقي حقولهم (التي تزرع البطاطا والثوم والبصل والبرسيم) حسب ما جرت العادة منذ زمن بعيد، إثر اتفاقيات ومعاهدات مكتوبة لتقسيم مياهها، توصل إليها الأهالي بعد عراكات ومنازعات عديدة ما تزال الأجيال المتعاقبة تتوارثها تماماً كتوارثها للعادات والخرافات والأساطير. وعلى الرغم من صغر جامع القرية؛ إلا أنه كان ذا معمار أنيق، وفي أسفله يقع مسجد النساء، وهو عبارة عن غرفة صخرية بدون نوافذ، سقفها منخفض جداً، تصلح لأن تكون غرفة داخلية لقبر أحد الملوك الحميريين أكثر من كونها مسجداً، يخترق أرضيتها بجانب الجدار الغربي مجرى مائي صغير متفرع من مياه "الجوهرة" يُستخدم للوضوء. مدخل جامع النساء ضيق جداً، يكاد يكون كوة في جدار، يخفيه عن فناء جامع الرجال سور حجري ركيك مليء بالشقوق التي

عادة ما يتلصص من خلالها، كلما سنحت الفرصة، شبابُ القرية الذين توارثوا هذه العادة أباً عن جد. بالرغم من ذلك لم يكن يبدو أن نساء القرية يبالين بالأمر كثيراً؛ إذ لا يتردد بعضهن في التعري والاغتسال خلف تلك الشقوق، ربما كجزء من العادة التي توارثنها أيضاً.

بعد أيام من مغادرة "المفضل" إلى "زبيد"، بعثت الملكة "أروى" في طلب ابنه، الذي تركه أبوه مع حامية صغيرة في الحصن أثارت حفيظة منافسيه. وما إن وصل الابن إلى مقامها حتى أودعته السجن، وأوعزت إلى الفقهاء أن يحتلوا الحصن، بعد أن بايعوا إبراهيم بن زيدان أميراً عليهم. يروي الإخباريون أنه عندما علم "المفضل" بذلك توجه نحو الحصن مباشرة، مع من تبقى من جنده، عاقداً العزم على إعادته بالقوة؛ لكن ما إن أشرف على أسوار الحصن حتى أصابته الصدمة وكاد أن يفقد عقله وهو يرى نساء حصنه وحظاياه من السراري كاشفات الرأس، وقد بان بياض أعناقهن بعد أن أخرجهن الفقهاء وتعمدوا أن يظهرن من سقوف الحصن بحيث يشاهدهن "المفضل" على هذه الحال. عندها، لملمَ "المفضل" كل ما لديه من شجاعة وصبر، وتوجه إلى "دار العز" لمقابلة الملكة، متخلياً عن طموحاته وأحلامه بالزواج منها، بل وبأي شيء آخر، عاقداً العزم على أمرٍ كتمه طويلاً ولم يبح به لأحد.

10

في قاعة الاستقبال بـ"دار العز"، كان "المفضل" قد فقد القدرة على النطق، بالكاد يشعر بنصفه الأيمن، الذي أصابه الخدر؛ لكن عينيه كانتا ما تزالان قادرتين على إيصال رده المستسلم على ما اعتقده رسالة شديدة القسوة من الملكة "أروى"... الملكة التي هام بها كثيراً ومن أجلها خاطر بحياته مراراً وكان داعماً رئيسياً في تمكينها من عرش الدولة بعد موت زوجها "المكرم"، ومنازعة ابن عمها، "سبأ"، في الحكم وفي شؤون الدعوة.

كانت الملكة "أروى" تتحاشى النظر إليه وهي جالسة على مرتبة غير مرتفعة، يحيط بها عدد من القادة والوجهاء. وبعد أن توسط بعضهم لديها وافقت، دون أن تنظر إلى "المفضل"، أن تعيد إليه الحصن من جديد، وأمرت بإطلاق سراح ابنه من السجن، ومنحته بعض المال والهدايا، كما جرت العادة، لنجاحه في حملة "زبيد"... هذه الحملة التي أدرك "المفضل" متأخراً أن إرساله على رأسها لم يكن سوى حيلة تم تدبيرها لإبعاده عن الحصن، بل وربما عن المملكة برمتها.

تقول الحكاية إنه بعد أربعة أيام من عودته إلى الحصن، وُجدَ "المفضل بن أبي البركات" جثةً هامدة في "مدفن جهنم" (أكبر مدافن الحبوب الصخرية المنحوتة منذ القدم التابعة للحصن، وأكثرها اتساعاً وجمالاً) بعد أن انزوى فيه صامتاً بجانب خزانة صخرية فارغة منحوتة في جدار المدفن، وقد غشيه ألم الخديعة وهذيان الخيبة والحزن.

يتناقل أهالي المنطقة حكاية مفادها أن شبح "المفضل" ما يزال يظهر من حينٍ لآخر، خاصة في أيام "العلاّن"(10)، عندما كان يجتمع الناس من جميع القرى إلى قمة الجبل عند موقع الحصن، أو ما تبقى منه، محتفلين في ما يشبه المهرجان الذي يستمر لعدة أيام. يحكي البعض كيف أنهم كانوا يشاهدون شبحه وقت الغروب، بعد انتهاء الاحتفالات وتأهب الناس للعودة إلى قراهم، راكباً فرساً بيضاء تخرج من بين ما تبقى من المدافن الصخرية، تهيم به في دورات متصاعدة قبل أن تقفز بخفة على قمة الجبل متجهةً نحو الغرب التهامي.

(10) علاّن: شهر الحصاد.

﴿11﴾

الغريب أن العمدة، وعلى غير المتوقع، لم يدَّعِ أبداً أنه قد شاهد شبح "المفضل بن أبي البركات"، أو أي شبح آخر. كل ما كان يهتم به، وهو يحكي باستمتاع مبالغ فيه عن تلك المهرجانات التي توقفت منذ سنوات، هو وصفه لنساء القرى الجميلات اللواتي كن يشاركن الرجال في الأهازيج والألعاب الشعبية، وحتى الرقص على صوت "الشبّابة" وإيقاع "الطواس"(11) والطبول وعلب الصفيح... يتنهد العمدة بحسرة، وهو يتذكر تلك الأيام الخوالي:

- يا لها من أيام!... يعني أيام من الجنة!

* * *

كان أهالي المنطقة، بعد منتصف ستينيات القرن الماضي، قد بدؤوا، كغيرهم، ينعمون بحالة نفسية أكثر اتزاناً وانفتاحاً للحياة، وكانوا ما يزالون، كعهدهم منذ القدم،

---

(11) الشبّابة: ناي تقليدي. والطواس: جمع طاسة وهي نوع من الطبول.

يعيشون كأسرة واحدة، بمختلف مستوياتهم الاقتصادية والاجتماعية. كان الاختلاط رجالاً ونساءً أمراً طبيعياً للغاية. إلا أن تلك المهرجانات توقفت منذ سنوات بعد أن احتلت مجموعة من الجنود قمة الجبل متخذة منها ثكنة عسكرية مغلقة أثناء حروب المناطق الوسطى. هذا بالإضافة إلى أن المهرجانات الغنائية ومسألة الاختلاط أصبحت أمراً يكاد يكون مستحيلاً بعد أن شاعت في البلاد عادات محافظة استطاعت التيارات السياسية الإسلامية منذ نهاية سبعينيات القرن العشرين فرضها على المجتمع الجديد الخارج لتوه من عصر كهنوتي مرعب. ولم يبق الريف اليمني، بسجيته الاجتماعية المنفتحة، في منأى عن الاستسلام تدريجياً لهذه العادات المحافظة الجديدة، فقد بدأ النقاب بالانتشار، بل إن بنات المدارس في القرى، دون العاشرة، بدأن يظهرن منقبات.

عندما كان العمدة يُسأل بإلحاح عن شبح "ابن أبي البركات"، كان يرد ساخراً:

- لا وجود للأشباح، ولا حتى للجن، إلا في رؤوسكم!...

ثم يستطرد بخبث:

- نعم... يعني رؤوسكم المقفرة هذه... ولا بد أنها الآن تحاول الفرار... *صدقوني*!

ثم يضحك كثيراً وهو الذي يعرف كم كانت ممازحاته تلك تُضايق أبناء القرية؛ إذ أن أحداً منهم لم يكن يجرؤ على السخرية والتهكم من أي مسألة تتعلق بالجن أو العفاريت... كانت هناك الكثير من الخطوط الحمراء التي لا يستطيع أبناء القرية تجاوزها، حتى مع العمدة، وكان على رأسها الحديث باستهزاء عن الجن والعفاريت... كما لو أنها -كما يؤكد العمدة- تسكن رؤوسهم بالفعل.

﴿12﴾

في أرضنا الجبلية الزراعية الوعرة لا تعتبر "الجوهرة" كنز قريتنا فحسب، بل وكنز المنطقة برمتها. فعندما ينقطع المطر في الشتاء وتجف الينابيع الصيفية، تصبح هي الملاذ الوحيد لأبناء القرى المجاورة، الذين يتقاطرون عليها بدوابهم المحملة بالأوعية البلاستيكية لجلب الماء، فتكتظ بهم طرقات القرية ودرجات الجامع، ويزداد الزحام حول "الجوهرة"، وتكثر المشاجرات بينهم وبين أبناء القرية، لأسباب عديدة معظمها تافه كما هو متوقع.

كان أهالي المنطقة جميعاً يؤمنون بأن "الجوهرة" هي هدية من الله، أوصلها لهم قبل مئات السنين "الحاج مُحُمّد" الذي يرقد ضريحه داخل "الولي"، وهو مبنى أبيض صغير، بقبة بيضاوية متقنة البناء، فوق تلة صغيرة في الطرف الشمالي من القرية بجانب المقبرة.

كان "الحاج مُحُمّد"، وهو من الأتقياء، يسكن قرية "ذي قلسن"، وهي إحدى القرى القديمة في المنطقة اندثرت منذ زمن طويل. كانت تلك القرية غير بعيدة عن قرية "ذي المجمرة"، التي لم تكن قد بُنيت بعد. في ذلك الزمن أصيبت

"عزلة النقيلين"، حسب ما تقوله الأسطورة، بجفاف شديد أدى إلى مجاعة استمرت نحو سبع سنوات، مات بسببها ربع الأهالي، وهاجر الربع الثاني إلى شتى البقاع، ونفق معظم الحيوانات جوعاً، وبارت الكثير من الأراضي الزراعية.

ذات ليلة مقمرة باردة في العام الرابع من المجاعة، كان "الحاج مُحُمّد" يسير مطأطئ الرأس حزيناً يشاهد ظله القمري وهو يزحف أمامه في طريق عودته من صلاة العشاء إلى داره قبل أن يغشى عليه فجأة. ظل ممداً لفترة طويلة في أحد الأزقة الضيقة، إذ لم يصادف مرور أيٍ من أبناء القرية، أو بالأصح ممن تبقى منهم. نهض "الحاج مُحُمّد" قبيل الفجر وقد عقد العزم -إثر رؤيا جاءته وهو مغشيٌ عليه- أن يذهب للحج ليدعو الله عند بيته العتيق أن يرفق بمن تبقى من الأهالي، وأن يسقيهم الغيث؛ فقد كان مؤمناً أن ذنوبهم كثرت وأن الله منع المطر عنهم عقاباً لهم عما اقترفوه من آثام... وما هي إلا أيام قليلة حتى سافر إلى مكة.

تقول الحكاية إنه بعد أن أكمل مناسك الحج وطاف مودعاً متضرعاً لله أن يغفر لأهالي المنطقة ذنوبهم ويرفع عنهم البلاء ويمن عليهم بالغيث، وبينما كان يسير ليلاً في أحد شوارع مكة، مطأطئ الرأس حزيناً يشاهد ظِله القَمَري وهو يزحف أمامه في طريق عودته إلى مخدعه وقد تهيأ للعودة

إلى بلاده، شعر بوهن فاجأه ووقع على الأرض مغشياً عليه لفترة وجيزة رأى خلالها النبي يطلب منه ألا يسافر إلى أهله حتى يأذن له.

في صباح اليوم التالي ظل "الحاج مُحُمّد" متحيراً في أمره وهو يودع قافلة للحجاج اليمنيين كان قد عزم السفر معها؛ لكنه سرعان ما اطمأنت نفسه للقرار الذي اتخذه، فقد منَّ الله عليه برؤية النبي في المنام والتحدث معه، فكيف يخالف أمره؟! وهكذا بقي في مكة منتظراً للإذن النبوي بالعودة، متكبداً عناء الغربة وشظف العيش، خاصة بعد أن طالت الأيام ونفدت نقوده، مما اضطره لبيع ما كان بحوزته من ممتلكات وهدايا كان قد اشتراها لأهله. تحولت الأيام إلى شهور، والشهور إلى سنين عاش فيها بعيداً عن أهله، واشتغل خلالها بأعمال بسيطة يحصل منها على اليسير من الزاد الذي يمكنه من العيش كيفما اتفق، دون أن ينقطع أمله بأن يأذن له النبي بالعودة إلى بلاده وأهله، ودون أن يعرف أيضاً أن قافلة الحجاج التي كان قد عزم السفر معها ذلك اليوم قد تم نهبها، وقُتِلَ معظم رجالها من قبل بعض قطاع الطرق.

في ليلة صيفية وقد ضايقه الحر، عاد من عمله مطأطئ الرأس، منهكاً، إلى مرقده، وقد تسلل إليه اليأس لأول مرة، وفترت عزيمته، بعد ثلاثة أعوام قضاها في مكة، غريباً، وقد

استبد به الشوق لأهله الذين انقطعت عنه أخبارهم في موسم الحج الأخير. تقلب في مرقده طويلاً قبل أن ينام بصدر مقبوض، لتأتيه الرؤيا التي انتظرها طويلاً، فها هو النبي يظهر له في المنام مرة أخرى ليأذن له بالعودة ويخبره أن الله قد أرسل إليه هدية إلى قومه سيجدها تحت مخدته ملفوفة بقطعة قماش، آمراً إياه ألا يفتحها، أو يعرف ما بداخلها، حتى يصل إلى قريته.

﴿13﴾

عند الفجر، وقد استيقظ "الحاج مُحُمّد" كعادته للصلاة، شعر برهبة كبيرة وهو يمسك بيديه الهدية التي وجدها بالفعل تحت المخدة، ملفوفة بقطعة قماش خضراء مكتوب عليها بعض الآيات القرآنية، وبجانبها بعض النقود. بعد أيام قليلة سافر عائداً في أول قافلة متجهة نحو الجنوب، متهلل الوجه والروح معاً. بدت رحلة العودة طويلة لا نهاية لها، راودته خلالها بين الحين والآخر مشاعر القلق والخوف. في بعض الليالي كان الشك يخالجه وتزداد في نفسه الهواجس وهو ينظر إلى تلك الهدية التي لم يعد بشيء سواها من الحج بعد فترة الاغتراب تلك، متنهداً يقلبها بين يديه.

تقول الأسطورة إنه عندما لاحت في الأفق معالم قريته، وقد أنهكه السفر، خفق قلبه وجلاً، فتوقف ليستريح من رهبة اللقاء وهو مشغول البال، وما تزال هدية النبي بيده، ينظر إليها بصمت، قبل أن يفتحها بعد تردد طويل، ليرى جوهرة حمراء كبيرة تتلألأ تحت وهج أشعة شمس الظهيرة، تحيطها هالة من ضوء تسبح فيه كلماتٌ تتماوج لم تستطع

عيناه المجهدتان أن تميزها. شعرَ بحيرة كبيرة؛ لكن هذا الشعور سرعان ما تحول إلى ندم عظيم؛ بسبب الشك الذي ظل يراوده طيلة رحلة العودة ومخالفته أمر النبي. ضاق الفضاء من حوله وشعر بجفاف في حلقه قبل أن يغشى عليه وتسقط الجوهرة من بين يديه متدحرجة إلى أسفل أحد مجاري السيول الجافة.

بعد ساعات مرَّ بعض الرعاة من ذلك المكان، ولم يصدقوا ما شاهدته أعينهم... كان شيخاً مُسناً مرمياً على الأرض مغشياً عليه تحت أقدام بغلة متهالكة لا تحمل فوق ظهرها أي شيء، وعلى مسافة غير بعيدة كانت المياه تخرج صافية غزيرة من عين ماء لم يروها من قبل.

أصبح "الولي" مع مرور الزمن مزاراً لطلاب البرَكة والشفاء، وما يزال بعض الأهالي، وخاصة النساء، يداومون على زيارته حتى اليوم، موقدين البخور وعيدان الندّ، على الرغم مما يلاقونه من مضايقات من قبل بعض أهالي القرية، الذين، دون أن يعرفوا متى أو كيف، أصبحوا يرون في هذه الزيارات مخالفة للإسلام. ومع ذلك، كان الجميع تقريباً يبدون نوعاً من التبجيل المتوارث عندما يتحدثون عن "الحاج مُحُمّد"، ما عدا العمدة، الذي لم يكن يكترث وهو يجاهر برأي مختلف، غير معترف بهذه الأسطورة، بل بأسطورة أخرى

مفادها إن "الحاج مُحُمّد" لم يكن سوى تاجر من تعز هاجمه بعض اللصوص من أبناء القرية في طريق عودته من الحج وسرقوا منه كل ما كان بحوزته بعد أن قتلوه وتركوه مرمياً في الطريق، ولكي يخفي أهالي المنطقة هذه الجريمة الشنعاء –حسب زعمه– قبروه وقاموا باختلاق حكاية الجوهرة وبناء ضريح له ليكفروا عن سيئاتهم. وقبل أن يقاطعه أحدهم معترضاً على روايته، التي لا يعلم إلا الله من أين جاء بها، والتي تنافي المتعارف عليه بالإجماع، كان العمدة يسارع إلى القول بتهكم وخبث:

- نعم... لقد كانت هذه بلاد لصوص... يعني سَرَقْ... ماذا تتوقعون؟!

ثم يستمر وقد عَلتْ وجههُ ابتسامة ماكرة، مشيراً إلى وجوه مستمعيه:

- أقول لكم بلاد لصوص... صدقوني..! أنظروا فقط إلى ذريتهم لتتأكدوا من ذلك...!

"إن وجودي هنا في اليمن لسبب يعلمه الله، وهو وحده من يستطيع أن يأمرني بالعودة إلى دياري".

مارتا مايرز

"لقد كانت ملاكاً... ولأن الله أراد لها حياة قصيرة قام بإرسالها إلى هذه "النقرة"... يعني هذه القرية الملعونة".

العمدة

الفصل الثاني

﴿14﴾

كنتُ لوحدي برفقة العملة في طريق عودتنا من جولته الصباحية التي اعتاد القيام بها يومياً، والتي عادة ما كان يرافقه فيها "كريم"، قبل أن يعتكف في منزله منذ فترة منعزلاً الناس، عندما جاء "الشرجبي"، وكيل الشيخ العارض، مهرولاً وقد ظهرت علامات الفزع على وجهه... كان مرتبكاً وهو يخبر العملة بصوت مرتعش:

– غِيروا علينا!... وجِدَ كريم بن الحاج عبده مقتولاً في بيته...

ثم أضاف بسرعة قبل أن يلتقط أنفاسه:

– لقد قتل نفسه يا عملة!... قتل نفسه!

تجمد العملة في مكانه... حاول أن يطلق بعض اللعنات على "الشرجبي؛" لكنه اختنق... حاول مرة أخرى أن يستوعب الأمر، أن يقول شيئاً؛ لكن "الشرجبي" لم يمهله؛ إذ سرعان ما أطلق لساقيه العنان بعد أن قال إنه سيذهب إلى مركز الناحية لكي يبلغ إدارة الأمن بما حدث ويحاول الاتصال من هناك بالشيخ العارض.

ظل العملة لوهلة مندهشاً ينظر بذهول إلى ظل عمامته المرتسم على التراب، وقد أحس بجفافٍ شديد في حلقه، قبل أن يسير بخطى متعثرة نحو القرية. كنتُ قد سبقت العملة ووصلتُ إلى المنزل، لا أعرف كيف وبتلك السرعة، فقد بدت المسافة صغيرة، بل متناهية الصغر. عندما دخلتُ الغرفة، التي بقي بابها مشرعاً بمصراعيه، كانت الجثة ما تزال على وضعها، متكئة على عتبة النافذة وغارقة بالدم الذي انسكب بعضه على أرضية الغرفة، بينما كانت البندقية ملقاة وحيلة بجواره، وكانت الجدران ملطخة ببقع دم على شكل أكفّ. تأملتها جيداً. كانت تبدو موزعة بشكل هندسي ملفت للنظر... لم أفهم شيئاً...

كنتُ مرتبكاً، بل وخائفاً أيضاً، غير مدركٍ لما يدور حولي... يختلط عويل النسوة اللواتي ملأن المنزل بأصوات مبهمة كانت تتعالى من مكان بعيد جداً ضج بها رأسي. حينها، كنت أشعر أنني بلا وزن، وأنه ما كان ينبغي لي أن أكون هنا، بل في مكان آخر... أي مكان آخر ما عدا هذا المكان...

15

عندما وصل العمدة بعد دقائق ودخل إلى الغرفة لاهثاً أصيب بهلعٍ كبير وهو يرى جثة "كريم" وآثار الدماء المنتشرة في أرضية وجدران الغرفة، فلم يتمالك نفسه، وأصابه غثيان مفاجئ، ودارت الأرض من تحت قدميه قبل أن يرمي بنفسه خارج الغرفة وهو يتقيأ متأثراً، تحت دهشة من كانوا بجواره حينها. لم يكن متوقعاً أن يكون العمدة من أولئك الذين يتأثرون بمثل هذه المناظر، وهو الذي كان قد شارك في حروب عديدة في شبابه، والذي عادة ما ينتشي وهو يحكي تفاصيلها مع بعض المبالغات المعتادة. لكن ما رآه العمدة حينها انطبع بمرارة في ذاكرته إلى الأبد، وأصابه بكوابيس تتابعت عبر السنوات التي عاشها بعد ذلك اليوم الرهيب.

يحتفظ العمدة –الذي كان مولعاً بسرد ذكرياته الدرامية واختراع بعضها– بذكرياتٍ خاصة لا يتحدث عنها إلا نادراً. كانت ذكرى هذا اليوم واحدة منها... وربما أكثرها إيلاماً!

16

لا تدوم ذاكرة أبناء قريتنا، بل وجميع أبناء المنطقة، طويلاً... كأنها ذاكرة أسماك، أو ربما ذاكرة ابتدائية لحاسوب قديم متهالك ومتخم بالفيروسات... تشغلهم حياتهم اليومية، التي تزداد صعوبة يوماً بعد يوم، عن أي شيء آخر، فينسون أمسهم بسرعة، ويتقبلون واقعهم بكل ترحاب، ويتعاملون معه بشكل روتيني... يتعايشون مع ما يستجد في حياتهم بسليقة عجيبة... يتقبلون الإشاعات كحقائق سماوية ثم ما يلبثون أن ينشغلوا بغيرها... يغيرون طباعهم وعاداتهم، بل وحتى تسمياتهم للأشياء، للأماكن والنباتات والأشخاص، حسب ما تقتضيه الظروف... يألفون ما يستجدونه من الأسماء بسهولة ويسر ويستخدمونها دون أن يعرفوا لماذا تغيرت، أو حتى ماذا كانت عليه من قبل!

لهذا لم يكن مستغرباً أن يكونوا، بعد فترة قصيرة، قد نسوا حادثة موت "كريم"، وانشغلوا عنها بشيء آخر، ربما مثل أشياء كثيرة كان لا بد لهم أن ينسوها كي لا يضيعوا في لجة التفاصيل المرهقة والمستعصية على الفهم...

لكنهم بعد أعوام من الحادثة، وفي يوم مشمس لا غيوم فيه، كانوا على موعد لتذكر "كريم" وحادثة موته الغامضة!... كان ذلك يوم جنازة الشيخ العارض، الذي توفي قبل يومين في المستشفى العسكري الجديد بالعاصمة، ونُقلت جثته فجراً في سيارة إسعاف، يرافقها موكب كبير من السيارات، ليدفن في القرية حسب وصيته.

17

كانت جنازة الشيخ العارض أكبر جنازة شهدتها المنطقة على الإطلاق، فقد تقاطر الناس عليها من كل حدب وصوب. التلفزيون الرسمي لم يتوقف منذ الأمس، بعد إذاعة خبر الوفاة وبيان النعي الرسمي من رئيس الجمهورية، عن عرض بعض البرامج الوثائقية، التي أعدها المخرجون التقليديون كيفما اتفق، عن حياة الفقيد وتاريخ أسرته ومنطقته المعروفة بالنضال الثوري. حتى أولئك الذين لم يكونوا حقاً مهتمين بالجنازة من أبناء القرى المجاورة، ما إن رأوا ذلك السيل الهادر من السيارات، التي اصطفت على مسافات كبيرة جداً في الطريق الوعر الممتد من "النجد الأحمر" إلى قرية "ذي المجمرة"، حتى ألقوا أدوات الزراعة من أيديهم وتوجهوا إلى القرية كي لا تفوتهم فرصة المشاركة في أضخم تجمع بشري تعرفه المنطقة.

كانت النساء قد تجمعن على أسطح المنازل المشرفة على المقبرة، وعلى الآكام القريبة وقمم الروابي المطلة على القرية، بلباسهن الأسود، يذرفن الدموع، ويرقبن موج السيارات التي

توقفت متزاحمة بشكل عشوائي على جنبات الطريق الوعر، والموج البشري الذي احتشد في فناء "دار البخور"، وامتلأت به أزقة القرية وساحتها الترابية والطريق الذي يشطرها إلى نصفين، والصاعد إلى المقبرة و"المجارين" التي تعلوها.

حضر الجنازة عدد كبير من أبناء القرى وطلاب المدارس، الذين لم يدرسوا في ذلك اليوم، وعدد من مسؤولي الدولة ومن الشخصيات الاجتماعية، ومن التجار والمشايخ من مختلف أرجاء البلاد... كانت الجنازة تشبه مهرجاناً جماهيرياً تجمع فيه الكثير من الناس، والتقى بعضهم ببعض بعد غياب سنوات عديدة: أصدقاء، أقارب، زملاء عمل، أعداء، متطفلون...

تم إنزال النعش، المغطى بالعلم الوطني، من سيارة الإسعاف التي أنهكتها وعورة الطريق، لتتلقفه الأيدي على إيقاع تكبيرات غير منتظمة، متجهة به نحو جامع القرية. حينها اختلفت الآراء، فالجامع صغير لا يمكن أن يستوعب إلا العشرات، وانقسم الأهالي كعادتهم، وبدأ الجدل بين أولئك المصرّين على أن تُقام الصلاة في الجامع وأن يصطف المشيعون خارجه، وبين الآخرين الذين لم ينتظروا طويلاً فبدؤوا بتحريك النعش نحو ساحة القرية المكتظة. أدرك العمدة، بعد أن بحَّ صوته وأرهقه التعب، أنه قد فقد السيطرة على مجريات الأحداث، فنجا بجسمه الصغير من بين الحشود وصعد

إحدى الآكام الصغيرة، وأشعل سيجارة ارتشفها بعصبية وهو يتمتم بغيظ: "ملاعيبين!...".

وضِع النعش أرضاً في طرف الساحة، واصطف معظم الحاضرين وراءه بصفوف معوجة مثيرين الكثير من الغبار قبل أن تبدأ تكبيرات الصلاة ترتفع، ويتناهى إلى سمعهم أصوات عويل النسوة من على أسطح المنازل المطلة على ساحة القرية. عندما انتهت الصلاة، كانت أشعة شمس الظهيرة قد بددت تماماً نسمات صباح ذلك اليوم من أيام شباط البارد، وبدأ التعب يحبو على ظهور الأهالي. تحركت الجنازة ببطء مرة أخرى، وتهادى النعش بجلال فوق موج بشري لملم أشتاته من بين الغبار صاعداً نحو المقبرة، هادراً بتراتيل وتكبيرات زادت الموقف رهبة وقداسة...

لا إله إلا الله محمد رسول الله

يا الله يا رحمن بالرضا والغفران

كان "غالب سعيد" وابن أخيه "عبده ثام"، واقفين بلا كلل داخل حفرة القبر، يمسحان عن أعينهما ذرات التراب التي أسقطتها أقدام المتزاحمين على حافة القبر، وهما يستقبلان الجثة التي كانت عشراتُ الأيدي تنزلها بحذر، فيما كان "الشرجبي"، وكيل الشيخ العارض، يصرخ بهما وبالآخرين بإرشادات متعارف عليها

لطقوس الدفن الذي دائماً ما يزداد فيه الهرج والمرج، كما لو أن تلك الطقوس كانت تقام لأول مرة.

كان العمدة عادة ما يضيق صدره لرؤية القبور وأصحابها الذين تختفي أجسادهم تحت تلك الصخور الصلبة التي تُطْبق عليهم قبل أن يهال عليها الطين والتراب، متخيلاً المنظر الرهيب الذي يمكن أن يراه الميت إذا ما استيقظ من موته فجأة في ظلمة القبر... وعندما كان يجادله أحدهم بما هو متداول عن حياة القبر وعذابه كان يحاججه قائلاً:

- ما من أحد قد عاد من موته، يا ملعون، ليقول لنا عن ذلك...
- يا عمدة لا يجوز...! عذاب القبر موجود!...

لكن العمدة يكمل كلامه متجاهلاً:

- ثم كيف له أن يعود وقد دفناه هكذا؟!... هه؟!... يعني من ألطاف الله أن الموتى لا يستيقظون في قبورهم العميقة هذه... نعم... فهي أشد وطأة عليهم حتى من دخول النار... *صدقوني!*
- يا عمدة لا تستهزئ بالنار هكذا!... أعاذنا الله وإياك منها، نسأل الله لنا ولك الجنة.
- وهل تعتقد أنك ذاهب إلى الجنة يا ملعون؟!

- إن شاء الله نكون من أهلها. ألا تعرف أن...

حينها يقاطعه العمدة مازحاً:

- أسكت يا ملعون!... إذا كان أهل الجنة من أمثالك فهي الجحيم بذاته... *صدقني!*

كان الزحام شديداً حول القبر، وبينما كان البعض يحاول المشاركة، ولو رمزياً، في تلك الطقوس، كان البعض الآخر (ومنهم العمدة الذي كان شعوره المتعاظم بالفخر من وقع الجنازة المهيب قد خفف قليلاً من حزنه الكبير) واقفين على بعد، يقرؤون بأصوات عالية متداخلة وغير مرتبة سورة "يس": {وجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ}... {واضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ}... {قالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّل مَرَّة}...

وعلى بعد أمتار قليلة من قبر الشيخ العارض، وأمتار أقل من قبر ابنه "علي"، شوهد بعض المشيعين وهم يقرؤون "الفاتحة" فوق قبر "كريم". حينها فقط، عادت إلى أذهان أهالي القرية من جديد ذكرى "كريم" وموته الغامض.

﴿18﴾

كان "كريم" متوسط القامة، عادة ما يلبس إزاراً تقليدياً يُظهر ساقيه النحيلتين، سريع الخطو، له وجه جميل بارز القسمات ببشرة سمراء، لفحتها الشمس، كحال أبناء الريف اليمني، وشاربٌ خفيف كأنه شارب مراهق. شعره شبه أجعد شديد السواد. له صدرٌ عريض، وساعدان قويان لا يتناسبان مع ضعف ساقيه...

لم يكن في العادة يلبس "جنبيته" التي ورثها عن أبيه إلا نادراً، مكتفياً بحمل خنجر صغير على خصره من الجانب الأيمن. كانت أمه قد توفيت وهي تلده، فلم يعرفها ولم يعرف حتى صورتها، فهي كمثل باقي نساء جيلها؛ عشن ومتن دون أن تُلتقط لأيٍّ منهن صورة واحدة... ربته وكفلته في البدء عمته الوحيدة "كُرامة"، التي عادت إلى القرية لتعيش في بيت أخيها بعد طلاقها من زوجها دون أن تنجب منه، رافضة أن تتزوج مرة أخرى، وهو ما لم يكن مألوفاً بين نساء جيلها، اللواتي كن عادة لا يبقين بدون زوج.

كان له أخوان يكبرانه؛ لكنهما توفيا في عقدهما الأول؛ بسبب الأمراض التي كانت تفتك بالأطفال في مثل هذا العمر. كان ما يزال في الثامنة عندما سمع بموت أبيه، "الحاج عبده"، أحد أبناء المنطقة الذين استشهدوا في "معارك برط"(12) ضد الملكيين. وعلى الرغم من أن "الحاج عبده" من أسرة معروفة بتدينها وتفقهها؛ إلا أن الناس كانوا يختلفون كعادتهم حول أصول هذه الأسرة، وأصول أسر أخرى سكنت "النقيلين". هناك من يقول أن "سالم"، جد "الحاج عبده"، جاء مهاجراً إلى المنطقة ضمن العشرات من أبناء القبائل الذين نزحوا من "بلاد مطلع"(13) خلال فترات متعاقبة، واستقروا في عدة مناطق من البلاد... بعضهم يقول: إنه جاء من "ريدة"، وبعضهم الآخر يقول من صنعاء، وآخرون يقولون من "حضرموت"، وهكذا... بعبارة أخرى كانت أصوله كأصول الآخرين من أبناء المنطقة، بل ومثل بقية الأشياء والأحداث في " النقيلين"، لا يعرف أحد حقيقتها على وجه الدقة.

---

(12) معارك وقعت بين الجمهوريين وبقايا قوات الملكيين بعد ثورة 26 سبتمبر 1962.

(13) تطلق هذه التسمية شعبياً على مناطق شمال الشمال من اليمن، بينما يطلق اسم "بلاد منزل" على مناطق جنوب الجنوب.

العمدة، الذي أحب "كريم" كثيراً وكان يعامله كصديق أكثر من كونه ابناً، كان يفتي دائماً بأن "سالم" هذا كان طبيباً حكيماً قدِمَ من "إسرائيل"، وأنه لم يقبل أن يستقر في البلاد إلا قبيل وفاته، بعد أن هددوه... مبرراً ذلك بما كان لـ"الحاج عبده"، أعز أصدقائه، ولابنه "كريم" من بعده، من ذكاء وحسن اطلاع. وعندما كان أحدهم يحاججه بأن "إسرائيل" لم تكن قد وُجِدت بعد في ذلك الزمن، يصر على رأيه بعناد متهكماً:

- لم تكن ماذا...؟! هه؟!... ومن قال لك ذلك يا ملعون؟!

ثم يستطرد بتخابث وقد شد انتباه مستمعيه:

- بل نحن الذين لم نكن موجودين... يعني ربما لسنا موجودين الآن... هه!... *صدقني*!...

- وأنت يا عمدة، من أين جاء أجدادك؟

يرد العمدة مبتسماً ومتصنعاً الافتخار:

- أنا نصراني... أما أجدادي الملاعين فقد جاءوا إلى هذه الحفرة من بلاد الواق الواق...!

- وأين بلاد الواق الواق هذه يا عمدة؟!

حينها يغمز بعينه بلؤم، وقد أعجبه السؤال الذي كان بمثابة مصيدة متوقعة، ثم يقول ضاحكاً:

- اسأل أمك يا ملعون!...

19

كان "كريم" قد تزوج من "ريحانة"... لم يكن قد عرفها من قبل. اختارتها له "أمي حليمة"، زوجة الشيخ العارض، التي كانت تحبه كثيراً كابنها الوحيد الذي فُجعت بموته منذ سنوات، فخطبت له من بنات قريباتها اللواتي يسكن "الربادي" في الجهة الشمالية من جبل التعكر.

كانت "حليمة بنت علي ثابت حيدر" تنتمي إلى أسرة علم عريقة في المنطقة، تلاشى بريق اسمها واندثرت ممتلكاتها خلال القرن الماضي، بعد سلسلة دامية من الثارات والاقتتال والغرائم والتشرد. مات عدد من أبنائها في السجون بعد أن كانوا ضمن العشرات من أبناء المنطقة الذين أخذهم الإمام رهائن في ذلك العام من أربعينيات القرن الماضي الذي يطلق عليه الأهالي "سنة التمرد"، كما مات آخرون متشردين في دروب الهجرة، وفي الطرقات الموحشة أو على الشواطئ الأفريقية، ومن تبقى منهم توزعوا على القرى المنتشرة على جوانب جبل "التعكر"، كما لو كانوا كومة قش ذرتها رياح شهر "عَلِبْ" الهائجة. يقول

البعض إن لعنة ما أصابتهم. ويتداول البعض الآخر رواية مفزعة مفادها أن "حمود حيدر"، الجد الرابع، كان فقيهاً مشهوراً، وكان فاحش الثراء، يمتلك معظم أراضي "العزلة"؛ لكنه في آخر حياته اعتزل الناس وغرق في متاهات الشعوذة و"التسفل"(14)، مدعياً قدرته على تسخير الجن في خدمته. تقول الرواية، التي لم يعد يتذكرها إلا القليل من الأهالي، إن مسّاً من جنون قد أصابه فبدأ يقوم بتصرفات غريبة، حتى أنه، لفرط حبه لأصغر بناته، أراد أن يتزوجها غصباً. كان اسمها "صفية"، وكانت رائعة الجمال، تُنافس إخوتها في العلم ويفاخر بها أبوها دائماً. تقول الرواية إنها، وقد شعرت بالخوف من أن يكون أبوها قد جُن، لم تجد بُداً من الهرب من دارهم الواسعة، التي ما تزال أطلالها واضحة حتى اليوم، ثم الانتحار؛ خشية الفضيحة.

وعلى الرغم من أن "الفقيه حمود" لفظ أنفاسه الأخيرة وحيداً وجائعاً في غرفة معزولة في داره بعد أشهر قليلة من هروب ابنته؛ إلا أن اللعنة كانت قد حلت على جميع أفراد الأسرة الذين كتموا هذا الأمر وتواطؤوا مع جنونه طمعاً في أمواله، فكان الموت والاختفاء هو مصير معظم رجالها وشبابها؛ إما مرضاً أو قتلاً بحوادث غريبة. كادت الأسرة أن تنقرض لولا أن اهتدى من تبقى منها إلى وسيلة كفت عنهم

(14) التسفل: القدرة على النفاذ إلى العالم السفلي، عالم الموتى.

هذا المصير المرعب. تقول الرواية إنه في إحدى الليالي ظهر "الحاج مُحُمّد" لمعظم أفرادها في المنام، وأمرهم أن يتفرقوا بين القرى والوديان، وأن يكتبوا نصف أراضيهم وقفاً للمساجد.

لم تَدُم الخطوبة طويلاً، وما هي إلا أيام، منذ العرس البهيج الذي أقيم له، حتى وجد **"**كريم**"** في زوجته الشابة كنزه الأنثوي وسعادته التي انتظرها طويلاً. لكنه، وقد أنس لها وبدأت تأنس له، لم يكن يعرف أن شعوره المتزايد بالرضا والاطمئنان ما هو إلا بداية لسلسلة من المفاجآت التي يخبئها له القدر، سترسم –وبلا هوادة– تفاصيل حياة لن تعرف الاستقرار أبداً. كانت أولى هذه المفاجآت هي وقوعه في حبها وهيامه بها إلى درجة لم تخطر له على بال؛ حبٌّ وهيام سيتحول مع الأيام إلى عشق مجنون لن يشفى منه أبداً.

﴿20﴾

كان لـ"ريحانة" في ربيعها السابع عشر قوام متوسط الطول، رشيق، كأكثر فتيات المنطقة، يزداد جمال وجهها كلما انفرج ثغرها عن ابتسامة محببة. واختصاراً لوصفٍ طويل: كانت فتاة مرحة، ودودة، فائقة الحسن... فاتنة حقاً، أو هكذا رآها "كريم" على الأقل.

الواحدة والنصف ظهراً كان الجو نصف غائم، وفي المقعد الأوسط لسيارة تويوتا رباعية الدفع تتمايل بسبب وعورة الطريق جلست "ريحانة" متضايقة، مختنقة بملابس الزفاف، وبدخان السائق و"الشواعة"(15) من أبناء عمومتها المرافقين لها، الذين كانوا قد بدؤوا في تعاطي "القات" بعد الغداء مباشرة. لم تتمكن "ريحانة"، خلال المسافة الطويلة التي تفصل بين قريتها، في الجهة الشمالية من جبل التعكر، وقرية "ذي المجمرة"، من إخفاء أمارات القلق والخوف الذي اعتراها. كانت تستطيع أن تسمع بوضوح دقات قلبها الوجلة وهي تزداد كلما ظهرت معالم قرية في الطريق،

---

(15) الشواعة: مرافقو العروس من أهلها إلى بيت زوجها.

ثم ما يلبث أن يعود إليها هدؤها مرة أخرى بعد أن يجتاز الموكب بيوت تلك القرية ويبدأ بسلوك الطريق الوعر الضيق بين الحقول والآكام. على مشارف مرتفع "طواق العروس" هبّتْ بعض النسمات المنعشة من الخارج، بعد أن كانت قد طلبت من الركاب فتح نوافذ السيارة؛ لكن توترها لم يهدأ... كان الجو رائعاً، وقد ظهرت القرى المترامية في أسفل الوادي، وبيوتها التي صقلها مطر مباغت، كعقد لؤلؤ انفرطت حباته وتناثرت متلألئة على بساط أخضر جميل...

> لم يتمكن أحد من التحقق مما إذا كانت "طواق العروس" مقابر صخرية قديمة، أم مذبحاً للآلهة السبئية، كما هو متداول، ولم يحاول أحد من الأهالي قراءة ما تبقى من الكتابات المسندية التي بدأت تختفي من على جدرانها. لكن المكان على أية حال كان مدهشاً حقاً، فـ"الطواق" هذه عبارة عن تجاويف متجاورة وشبه متماثلة على شكل نوافذ أو غرف صغيرة، بعقود متصلة بعضها ببعض بواسطة مداخل وفتحات تكسرت مع مرور الزمن. كان من الملاحظ أنه قد تم نحت بعضها ليتناسق شكلها. كما أن أرضية بعض الغرف كانت تحتوي على دكات صخرية، وتنتشر رسوم لأبواب ورفوف متعددة الأحجام على جدرانها

يؤمن البعض بأن الراهب "سُطيح التعكر" هو من نحتها بيديه.

كان الأهالي عادة ما يقومون بزيارتها في نزهاتهم الصيفية أو أيام الجمعة. كما كان الرعاة يحتمون بداخلها من المطر، ويستعملها اللصوص أو الهاربون ليلاً للمبيت... من هناك يستطيع المرء أن يستمتع بمناظر رائعة للسفح المفتوح الذي يبدأ من آخر التلال الممتدة جنوباً وحتى "وادي الحوبان" ومشارف مدينة تعز. أما لماذا تدعى "طواق العروس"، فلا يعرف أحد على وجه الدقة؛ غير أن بعض الأهالي يتداولون حكايات مختلفة عن لعنة ما أصابت أكثر من عروس في الماضي عند مرور مواكبهن من هناك، وأن بعضهن أصيبَ بالأمراض، وتوفين بعد ذلك بوقت قصير...

ومن هذه الحكايات أن "صفية"، ابنة الشيخ حمود حيدر، هربت منذ زمن بعيد واختبأت في تلك التجاويف الصخرية. يقولون (وهي رواية مغايرة عن السابقة) إنها بعد موت أبيها، الذي كان يدللها كثيراً، هربت ليلة زفافها على أحد أبناء عمومتها (وكان تقريباً بعمر أبيها) بعد أن غصبها إخوتها على الزواج منه... البعض يقول إنها انتحرت، وآخرون يقولون إن الأبواب المرسومة على جدران التجاويف انفتحت لها لتدخل عبرها إلى عالم غيبي لم تخرج

منه، ولم تترك أثراً سوى "قميصها"(16) الأسود الذي هربت به... ومنذ ذلك الوقت أطلق الأهالي على تلك الآثار البديعة اسم "طواق العروس"... من حسن حظ "ريحانة" أنها في ذلك اليوم لم تكن تعلم الكثير عن هذه الحكايات، وإلا لازدادت هواجسها وتعاظم قلقها.

كان العمدة على رأس "الشواعة" الذين جاؤوا بسيارتين إلى قرية العروس قبيل الغداء. كان منتشياً طوال الوقت، خاصة بعد أن ميزه أهل العروس وأكرموا وفادته، ووضعوا أمامه أصناف الأكل الذي يفضله، من "العصيد" بالمرق الحامض، و"بنت الصحن" اللذيذة المترعة بالعسل البلدي، والكثير من اللحم، كما خصوه بعد ذلك بنوع ممتاز من القات "الجعشني".

في طريق العودة كان يدخن بشراهة، ويدندن بصوت مرتفع مع صوت مسجل السيارة، دون أن يلتزم كعادته بإيقاع الأغاني، متبادلاً المزاح مع ركاب السيارة التي تقدمت الموكب الذي سيوصل العروس إلى بيت زوجها، وقد تدلت يده القصيرة من النافذة. لكنه، وقد ظهر أحد منعطفات الطريق الذي يمر بمحاذاة أول التجاويف الصخرية، انكمش إلى الداخل قليلاً، وأغلق المسجل

---

(16) القميص: جلباب أسود تقليدي مزين بنقوش ملونة بسيطة تلبسه عادة نساء القرى.

للحظات وقد راودته ذكريات مؤلمة ليوم بعيد مات فيه الكثيرون من أصدقائه من أبناء المنطقة بعد أن انقلبت بهم سيارة مكتظة بالراكبين، كان هو و"العريس" من بينهم.

- ملعون ذلك اليوم... وملعون سائق تلك السيارة...!

كان العمدة عادة لا يجد ما يعبر عنه، وهو يتذكر تفاصيل ذلك اليوم الدامي الكئيب:

- نعم... ملاعين جميعنا، يعني من مات، ومن لم يمت...!
- يا عمدة لا يجوز اللعن!... أستغفر الله!... لا يجوز!...
- هه!... وملعون أنت قبلنا جميعاً!... استغفر الله أنت... يعني لأنك مليء بالذنوب يا ملعون!...

﴿21﴾

عندما اقتربت السيارة من "ذي المجمرة"، وبدأت تتهاوى عجلاتها في الحفر والمنعطفات الخطرة، شعرت "ريحانة" برغبة شديدة في البكاء؛ لكنها كانت تعلم مدى صعوبة ذلك، وصعوبة إخفاء دموعها عن مرافقيها، الذين بدؤوا الآن يباشرون إطلاق الرصاص في الهواء من نوافذ السيارة ابتهاجاً، خاصة عندما تتوقف "حُفاصة الدوشانة"، المرأة الوحيدة المرافقة لها، عن زفها:

يا عروس...

بيت ابيك معمور بآجور

والحمام حوله تدور.

.....

قدموا المهر المحجل...

تعتلي هذي القمر...

حاولت "ريحانة" أن تستجمع قواها، فهمست في أذن حُفاصة متهكمة:

- بيتنا من الحجارة كما تعلمين، ولا تدور حوله حمامة واحدة!...

نظرت إليها "حفاصة" وقد باغتها الحديث؛ لكن "ريحانة" استمرت وقد بدأت تبتسم:

- ولا أعتقد أنه سيكون في استقبالنا مُهر محجل... ما رأيك؟!

تضحك "حفاصة"، وقد أعجبها التهكم، لتسأل بدورها ممازحة:

- والقمر؟!

- مخسف يا حفاصة!...

وتتعالى ضحكاتهما التي لم يسمعها أحد في غمرة الصخب الذي بلغ أوجه في الخارج، وقد وصلت السيارة أخيراً ساحة القرية.

22

في ليلة العرس، وقد غادر أهل العروس، ذهب الرجال والشباب ليكملوا سهرتهم ويستمتعوا بمشاهدة العمدة والآخرين وهم يرقصون، بينما تقاطرت نساء القرية لمشاهدة العروس.

كان العمدة راقصاً شغوفاً وبارعاً، حين يرقص "البَرَع"(17) تخال أن الأرض تتقافز تحت قدميه وأن الحرب مشتعلة. كان يكفي أن ترفع صوت مسجل يصدح بأغاني المزمار الشعبية حتى ينسى العمدة كل شيء، ويصبح شعلة راقصة تتماوج مع أشعة الشمس المنعكسة على نصل جنبيته التي يراقصها بيده بدلال يدهش الجميع. لهذا اكتظ ديوان الشيخ العارض بالمتفرجين وقد تقرفصوا يصفقون وهم يشاهدون العمدة وقد تلبسته حالة صاخبة من الرقص الرائع، مبتعدين قدر الإمكان عنه وعن سيجارته المشتعلة بين أصابعه، والتي عادة ما كانت تصيب بعضهم بحروق طفيفة.

كان الآخرون يشاركون العمدة الرقص وينضمون إليه بين الحين والآخر في رقصه المستمر بلا كلل على إيقاع عود فنان من

---

(17) رقصة قبلية جماعية.

المنطقة كان صوته مجلجلاً في بداية السهرة، قبل أن ينهكه التعب بعد ساعتين من الغناء المتواصل، وقد أفرط في الشراب؛ لكن يديه ظلتا تناغمان العود حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة البهيجة.

عندما غادرت آخر نساء القرية المكان، أمعنت "ريحانة" النظر لأول مرة في تقاسيم وجه "كريم"، على ضوء "النوارة"(18) الجديدة التي اشتروها للمناسبة، فأعجبها كثيراً. كان وسيماً... وودوداً... ولم يُقدم على ما ظل يقلقها ويؤرقها منذ أسابيع؛ منذ أن قبلت به زوجاً دون أن تعلم لماذا! بل أخذ يحادثها بلطف وتودد قبل أن ينام بجوارها بهدوء. من تلك اللحظة عرفت أي نوع من الرجال هو، وبدأت تشعر بارتياح كبير نحوه، خاصة أنه كان قد استيقظ مبكراً للاغتسال في مياه "الجوهرة"، مستقبلاً التهاني من أهالي القرية الذين تجمعوا حوله عند النبع يزفونه، ويمازحونه، وهو بالطبع ما خفّف عنها، في ذلك اليوم، الكثير من أسئلة "أمي حليمة" وبقية النسوة ومزاحهن، ومن فضول العمة "كُرامة".

كان اغتسال العريس في صباح اليوم التالي للعرس أمراً تقليدياً متبعاً كدليل على إتمام مهمته الرجولية المنتظرة... وعادة ما كان يستقبله أصدقائه بممازحات دائمة. العمدة لم يقبل بالأمر في ذلك الصباح، بل قام بوضع مجموعة من الأعشاب والعيدان الصغيرة

---

(18) النوارة: نوع زجاجي أنيق من فوانيس الكيروسين.

اليابسة فوق رأس "كريم" وسط ضحكات الجميع، دلالة على فشل "كريم" في مهمته الذكورية.

- يا عمدة!... كريم أحمر عين!...

يتبرع أحدهم بالقول، فيجيب العمدة وهو يهز رأسه نافياً، وعلى محياه سيماء الانتصار:

- لا... لا... صدقوني!... كريم مثلكم جميعاً.. عيال نيذو... يعني فاشلون...

* * *

في الليلة الثانية قبّلها طويلاً بينما كانت شفتاها ترتعشان؛ لكن سرعان ما زال توترها واستسلمت ليديه اللتين تطوقان جسدها، وغاصا معاً بلا وعي في عوالم لذيذة غير مستعجلين بالقيام بما ينتظره منهما الجميع، مكتفيين بالتعرف على تفاصيل جسديهما العاريين تحت اللحاف. في الليلة الثالثة، بحثتْ عن خجلها فلم تجده، ولم تدْرِ بنفسها إلا وقد تعرت أمامه تماماً... وعلى ضوء "النوارة" الحالم أخذ وقته في تلمس جسدها الممشوق وقد ارتسم ظل تقاسيمه على جدران الغرفة ليزيده جنوناً فوق ذلك الذي تثيره رائحة عطرها الجميل... اقترب بوجهه نحو أعضائها الحساسة، مشدوهاً وهو يرى من الجمال أكثر مما كانت غرائزه الرجولية تحلم به...

بدأ يقبلها، يتنقل بلهفة في كل موضع من جسدها الطيِّع المرتعش... وخوفاً من أن يعود إليها خجلها ساعدته على تجريد ملابسه...

يا ليلة العمر الهني طولي بفرحة هانية

خلّي العروسة والعريس فوق النجوم السارية

كانا فوق النجوم... وعاشا لحظات نعيم حياتهما حتى غالبهما النعاس قبيل الفجر بقليل... ولم تشرق شمس ذلك اليوم إلا وقد تم السرور، كما يقال عادة في هذه المناسبة.

23

لم تكن "ريحانة" قد أكملت دراستها، ولم يكن هذا الأمر مستغرباً، فمعظم بنات جيلها لم يذهبن إلى المدارس، التي كانت ما تزال نادرة في تلك السنوات. لكنها كانت قادرة على القراءة بشكل جيد، فقد اعتنى والدها بتعليمها وتثقيفها بشكل خاص. لم يكن هذا وحده ما أدهش "كريم" وأعجبه، إذ لم تمر سوى أيام قليلة حتى أدرك ما لزوجته من واسع اطلاع على كثير من الأمور والأخبار والمعلومات المختلفة، والذي لم يكن ليتوقعه من فتاة عاشت معظم حياتها في القرية. وهكذا وجد فيها خير رفيق، فكان يتبادل معها الحديث عن مواضيع شتى كان من الصعب أن يجد لها اهتماماً لدى العديد من أصدقائه من أبناء القرية، باستثناء الشيخ العارض، الذي أشرف على تربيته بعد موت أبيه، وكان يهتم كثيراً بتزويده بالمجلات والكتب التي يأتي بها من العاصمة، مشجعاً إياه على القراءة والتعلم... لكأنما كان يحاول أن يعوض به عن ابنه الوحيد الذي مات في حادثة السيارة المشؤومة. في أول الأمر، لم يستطع "كريم" أن يخفي استغرابه من ثقافتها الواسعة، بل إنه شعر في

بعض اللحظات بشيء من غيرة غير مفهومة؛ لكنه مع كل ذلك أدرك كم كان محظوظاً بها!... وكم يحبها!

والحق أن "ريحانة" كانت فتاة ذات طباع ودودة ومرحة، منطلقة في حديثها بشكل عفوي ومريح، وهو ما مكّنها من كسب قلب العمة "كُرامة" و"أمي حليمة"، التي كانت قد أصرت على "كريم" أن ينتقل إلى "دار البخور" مع زوجته ليقضيان فيها أسابيعهما الأولى. بل، وخلال فترة وجيزة، كانت قد كسبت قلب كل من عرفها من أهالي القرية، التي لم تمكث فيها سوى أشهر قليلة على أية حال... أشهر شعرَ خلالها "كريم" بسعادة كبيرة، كما لو أن قبة الفضاء الفسيح قد انفتحت له، تغمره بنجومها المتلألئة. غير أن هذه السعادة لم تدم طويلاً؛ فالقدر لم ينتظر كثيراً حتى أعد، وبقسوة، مفاجأته الثانية؛ فبعد خمسة أشهر وثمانية أيام فقط من الزواج، حسبها "كريم" بدقة، توفيت "ريحانة"، آخذة معها جنينها في بطنها!

العمة "كُرامة"، ومعها "أمي حليمة" ونساء القرية أجمعن على أن "ريحانة" أصيبت بعين خبيثة، أو بسحر حقود دبّرته لها فتيات القرية، اللواتي شعرن بالغيرة من هذه الفتاة التي أتت من قرية بعيدة وأصبحت محل اهتمام وحب الجميع...

عندما اشتدت بها الحمى وبدأت تنزف، أخذها "كريم" إلى المستشفى المعمداني في "جبلة"، لتقرر لها الطبيبة الأمريكية "مارتا" بعض الأدوية؛ لكنها لم تشف... ولم تنفع صلوات أهلها ومحبيها، ولا البخور الذي أحرقته العمة "كُرامة" فوق ضريح "الحاج مُحُمّد"، وظلت "ريحانة" تكابد الآلام والحمى لأيام، حتى ماتت في قريتها ليلاً، لتدفن بعد صلاة ظهر يوم ماطر وحزين!

24

كان الطبيب الأمريكي "جيم يونغ" في السادسة والثلاثين من العمر عندما وصل أول مرة إلى اليمن كأحد أعضاء البعثة "المعمدانية الجنوبية الدولية"(19) في الرابع عشر من شهر مارس 1967. طويل القامة، على الأقل بالنسبة لعامة اليمنيين، يلبس نظارة طبية، ولظهره انحناءة خفيفة تعطي انطباعاً مضاعفاً عن جديته ومثابرته في العمل التطوعي الذي اختاره بعد سنوات من العمل في المستشفيات الأمريكية. كانت الثورة اليمنية ما تزال وليدة حينها، والبلاد تتغير كل يوم، وكذلك حياة الناس، الذين وجدوا لأول مرة خدمات طبية تنقذهم من الموت بسبب أمراض لم تعد خطيرة في ذلك العصر.

بعد أقل من عام من وصوله اليمن، عمل "الدكتور يونغ"، كما يسميه الجميع، في المستشفى المعمداني في "جبلة"، منذ تأسيسه عام 1968 ولسنوات عديدة، كجراح وطبيب عام، مكتسباً شهرة واسعة وحب المئات من أهالي المناطق القريبة، بل ومن شتى مناطق المحافظة والمحافظات المجاورة.

Southern Baptist International Mission (19)

في عامه الخمسين غادر اليمن، لتخلفه "مارتا مايرز"، الطبيبة الأمريكية التي واصلت بكل جد ومثابرة عملها في المستشفى كطبيبة أمراض نساء وتوليد.

كانت "مارتا" قد عرفت اليمن أول مرة عام 1971، عندما عملت كمتطوعة لمدة ثلاثة أشهر وهي ما تزال طالبة في كلية الطب بجامعة "ألاباما". عند انقضاء المدة غادرت اليمن؛ لكنها كانت قد عقدت العزم على العودة مرة أخرى، وهو ما تحقق لها بالفعل بعد سبع سنوات. لم تكتف الدكتورة "مارتا" بعملها في المستشفى؛ إذ كانت عادة ما تقوم بزيارة مريضاتها، من قرى مختلفة، في بيوتهن، كما كانت تقوم أيضاً بتقديم المعونات الإنسانية المختلفة لفقراء المنطقة، وهو ما أكسبها شهرة أوسع وحباً كبيراً، خاصة من النساء... كان الجميع يدعونها ببساطة "مارتا" من دون أية ألقاب.

كانت طويلة ونحيفة، بوجه حاد الملامح، ونظّارة طبية كبيرة تستند إلى أنف طويل بارز، تغطي شعرها الأشقر عادة بحجاب ملون، ترتسم على شفتيها ابتسامة أمومة خالصة. ظلت شهرة "مارتا" تتزايد مع مرور السنين، على الرغم من كل المضايقات التي كانت تواجهها في السنوات الأخيرة، حين انتشرت في البلاد أفكار متشددة للإسلام السياسي، الذي كان مدعوماً من الحكومة؛ إذ تم اتهامها، مع زملائها من الأطباء الأمريكيين في المستشفى، وبشكل

متكرر، بمزاولة أعمال تبشيرية لنشر الدين المسيحي بين المواطنين. في حقيقة الأمر لم تكن هذه الاتهامات جديدة، فقد بدأت منذ إنشاء المستشفى أول مرة، وهي اتهامات لم يتم إثباتها بشكل قاطع، ولم تلق أي تجاوب حقيقي من المواطنين، الذين أصبح المستشفى وخدماته جزءاً أصيلاً، ومهماً، من حياتهم اليومية.

غير أن "مارتا"، وهي التي نجت قبل أعوام من محاولة اختطاف، لم يكن يخطر ببالها أنها لن يكون بمقدورها أن تكمل احتفالات أعياد الميلاد في عام 2002. ففي يوم الاثنين، الثلاثين من ديسمبر من ذلك العام، فجعت البلاد بحادثة قتل مريعة كان ضحاياها "مارتا"، ومدير المستشفى "بيل كوهين"، ومديرة المشتريات "كاثلين جاريتي"، كما أصيب الصيدلاني "دونالد كاسويل" بجروح خطيرة. حدث ذلك في هجوم مسلح نفذه أحد "المتشددين الإسلاميين"، حسب وصف وسائل الإعلام الرسمية التي أذاعت الخبر، والتي أضافت أن القاتل، ويدعى "عابد كامل"، استطاع، حسب قول الشهود، أن يُدخل "كلاشينكوف" ملفوفاً ببطانية أطفال إلى المستشفى، بعد أن أوهم رجال الأمن أنه يقوم بإسعاف طفله المريض.

كانت وسائل الإعلام ما تزال منشغلة بحادثة اغتيال أخرى روعت البلاد، نفذها، قبل يومين من مقتل الأطباء،

"أحد المتشددين الإسلاميين"، حسب وصفها، وراح ضحيتها هذه المرة أحد أبرز السياسيين المعارضين في البلاد. وسائل الإعلام ذكرت أن قاتل الأطباء اعترف بجريمته "بسبب مزاولتهم للتبشير وسط صفوف الفقراء من المسلمين في مدينة جبلة"، وأنه، حسب اعترافاته، التي نشرتها الصحف، توجه نحو مكتب مدير المستشفى "الذي التفت إليّ، فباشرته برصاصة في رأسه وأخرى في صدره، ثم أطلقت على مارتا رصاصتين، ورصاصة على كاتي، وخرجتُ مسرعاً، فالتقيت بالدكتورة الروسية اوكسانا، وقد عرفت أنها أسلمت، فتركتها، ودخلتُ الصيدلية وأطلقت على الدكتور دان رصاصة واحدة اعتقدتُ أنه مات بسببها".

25

لم يكن "كريم" بجانب "ريحانة" عندما لفظت بهدوء أنفاسها الأخيرة؛ لكنه شعر بأن الكواكب البعيدة اهتزت في تلك اللحظة... شعر بها وهي تميل عن مسارها، كما شعر بالنجوم تتهاوى في مجراتها التي ضاقت بما عليها، تكاد تلقي من على ظهرها كل ما حمّلها الوجود إلى فوهات ثقوب سوداء ازدادت اتساعاً في صدر الكون، هذا الكون الذي انكمش لحظتها وضاق من حوله حتى أفقده صوابه...

في الثامن والعشرين من ديسمبر 2002، وبعد دقائق من إلقائه خطاباً تاريخياً، تم اغتيال "جار الله عمر"، الأمين العام المساعد للحزب الاشتراكي اليمني، الذي كان يحضر مؤتمراً عاماً لحزب التجمع اليمني للإصلاح، حين أطلق عليه القاتل، ويدعى "علي أحمد السعواني"، رصاصتين، أمام أكثر من أربعة آلاف شخص، وأمام شاشات التلفزة ووسائل الإعلام المختلفة. دفن "جار الله عمر" في مقبرة الشهداء في صنعاء، وشيعه مئات الآلاف في مشهد جنائزي مهيب.

في ساحة السجن المركزي بصنعاء، وبتوقيت العاشرة صباحاً من يوم الأحد السابع والعشرين من نوفمبر 2005، تم تنفيذ حكم إعدام "السعواني"، الذي ربما لم يكن يعرف أن قتيله كان أول سياسي يمني ينادي علناً بإلغاء عقوبة الإعدام في اليمن.

لم يحضر "كريم" مراسيم الدفن، فالرسل الذين تم إرسالهم للبحث عنه لم يجدوه، ولم يعلم أحد أين كان قد اختفى منذ أيام. كان "كريم" يعرف أن زوجته، التي بدأ وجهها يذبل وأصبح شاحباً، ستموت حتماً. وبعد أن زادت حالات الإغماء في أيامها الأخيرة لم يستطع، رغم محاولاته المتكررة، أن يخدع نفسه بأملٍ مستحيل، كما لم يستطع أن يتظاهر برباطة الجأش، أو شيء من هذا القبيل، مما يفعله الرجال عادة في هذه المواقف... في أول الأمر كان يشعر أن المسألة مجرد مزحة من نوع ما، وأن صحتها ستتحسن وتعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل... غير أنه في أيامها الأخيرة أصبح متيقناً من دنو أجلها... كان هذا اليقين يعذبه، فترك ساقيه تهيمان به إلى حيث لا يدري، وضاع في ظلمات صبّتْ جحيمها على عقله الذي كاد ينفجر، وهام طويلاً كسحابة تائهة في سماء لا لون لها، متشرداً بين القرى والوديان البعيدة، يتسلق الآكام والشعاب وينام في أماكن لا يعرفها أو في الجروف وتحت الصخور،

تمر أيام لا يذوق فيها الطعام؛ إلا ما يجود به بعض العابرين أو الفلاحين الذين كان يمر من بين مزارعهم أو بجانب بيوتهم.

قاتل الأطباء، عابد كامل (30 عاماً)، اعترف أيضاً بعلاقته بـ"السعواني"، منفذ عملية اغتيال جار الله عمر، الذي "نسق معه للقيام بالعملية الجهادية ضد النصارى الأمريكيين". كما اعترف، حسب مصادر أخرى، بعلاقته "بأحد المجاهدين العرب في البوسنة، الذي قام قبل أربعة أعوام بقتل ثلاث راهبات كن يعملن في مستشفى الأمراض العقلية في مدينة الحديدة".

في الليلة الثانية لموت "ريحانة"، كان القمر بدراً، وكان ظل "كريم" يسابق قدميه اللتين قادتاه، دون أن يدري، إلى حيث قبرها الذي كان ما يزال كومة من تراب. ظل ينظر إلى القبر طويلاً قبل أن يتهالك جسده، ويجثو على ركبتيه، ويجهش ببكاء حار وطويل، سكب فيه كل ما أودع الله له من دموع دفعة واحدة، ونهائية

"ها أنا أقول لكم إن الصلوات لا تضيع هدراً هنا في اليمن؛ لأن الاحتياجات ما تزال كبيرة جداً". هذا ما قالته "مارتا" يوماً لأعضاء المجلس الدولي للبعثة الجنوبية المعمدانية في اجتماعهم السنوي، مضيفة: "عليّ أن أقول إن

الحقول قد ابيضت للحصاد(20)، وكم نحن بحاجة إلى أن نصلي لرب الحصاد أن يرسل عباده للمساعدة!".

دُفنت "مارتا"، مع "بيل كوهين"، مدير المستشفى، في حديقة المستشفى الخلفية بـ"جبلة"، حسب وصيتهما، في جنازة مهيبة شارك فيها آلاف اليمنيين، رجالاً ونساء، وما يزال بعض الأهالي حتى اليوم يقومون بزيارة ضريحيهما، لقراءة الفاتحة على روحيهما.

"إن وجودي هنا في اليمن لسبب يعلمه الله، وهو وحده من يستطيع أن يأمرني بالعودة إلى دياري". هذا ما ردت به "مارتا" على نصائح أصدقائها الذين كانوا يحثونها على مغادرة اليمن، دون أن تعلم أن الله كان قد كتب لها أن تموت في البلد الذي أرسلها لتساعد "أهله الطيبين".

نجحت "مارتي كوهين"، زوجة مدير المستشفى، التي نجت من الموت، في اجتياز امتحانها الصعب، فبعد زيارة قصيرة إلى "تكساس" لعزاء ابنتيها، قررت العودة إلى اليمن

---

(20) في إشارة إلى قول المسيح: "أما تقولون: إنه يكون أربعة أشهر ثم يأتي الحصاد؟ ها أنا أقول لكم: ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول، إنها قد ابيضت للحصاد، والحاصد يأخذ أجرة، ويجمع ثمراً للحياة الأبدية، لكي يفرح الزارع والحاصد معاً" (يوحنا، الإصحاح الرابع).

والعمل في المستشفى بدلاً من مديرة المشتريات "كاثلين جاريتي"؛ غير أنها فشلت في التوسط لدى الحكومة اليمنية لإبطال حكم الإعدام الذي صدر في حق القاتل. بعد ثلاثة أعوام وشهرين، وتحديداً في السابع والعشرين من شهر فبراير 2006، تم إعدام القاتل.

عاش "كريم" بعد موت "ريحانة" مكروباً، منزوياً لفترة طويلة، يقضي معظم أوقاته في مكتبة "دار البخور"، رافضاً أن يتزوج مرة أخرى، على الرغم من إلحاح عمته "كُرامة"، ومحاولات "أمي حليمة" لتزويجه مرة أخرى... العمدة كان يتحدث عن إحجام "كريم" عن الزواج بطريقته الخاصة التي يستخدمها في عتاب من يحبهم:

- أخبل... يعني مش رجّال..!!

ثم يستدرك، وقد تذكر ريحانة:

- لقد كانت ملاكاً... ولأن الله أراد لها حياة قصيرة قام بإرسالها إلى هذه "النقرة"... يعني هذه القرية الملعونة... لكن الحياة لا بد أن تستمر... هه...! لكن مَن منكم يستطيع إقناع هذا الأخبل؟! يعني بالتأكيد لا أحد... فأنتم كلكم ملاعين...!

"ما أحسن الحرب عند المتفرجين!".

العمدة

"السائر طائر... والجالس حجر!".

السُليّان

الفصل الثالث

26

في اليوم الذي وجُد فيه "كريم" مضرجاً بدمائه كانت القرية قد انقسمت كالعادة إلى فريقين، الأول يقول إن "كريم" قُتل بعد أن قام مهاجموه بكتم أنفاسه، وأن القتلة هربوا من نافذة غرفته التي كانت مفتوحة، والآخر يقول همساً إنه انتحر حين أطلق على نفسه رصاصتين. كلا الفريقين لم يكلف نفسه عناء تبرير رأيه أو تقديم مزيد من الإيضاحات، وتحول الخلاف تدريجياً إلى مشاحنات وتبادل للاتهامات، ولم تهدأ تداعيات الفتنة إلا في الليل، بعد أن وصل الشيخ العارض من العاصمة، حزيناً، متجهم الوجه، وتوجه مباشرة، يتبعه العمدة، ولفيف من أهالي القرية، إلى بيت "كريم".

تردد كثيراً في رؤية الجثة، التي كانت ما تزال ملفوفة بملاية تلطخت ببقع دم أصبح الآن جافاً. وتردد أكثر في رؤية العمة "كُرامة"، التي ما إن رأته حتى زاد نحيبها، فجاهد نفسه على إيجاد كلمات الرثاء والمساندة المناسبة في مثل هذه المواقف؛ لكنه تلعثم. كان في حالة سيئة بعد أن سمع تفاصيل ما حدث، ويقول من رافقوه

في تلك الليلة إنهم شاهدوه خلسة يمسح بعض الدموع التي نزلت وبللت شاربه الكث. لكنه، وبحزمه المعروف، كان قد اتخذ قراره الحاسم والمناسب في مثل هذه المصائب الكبرى: سيتم الدفن صباح اليوم التالي، إكراماً للميت، الذي أحبه مثل ابنه الذي حرم منه، فليس هناك ما يستدعي التأخير.

كانت العمة "كُرامة" في هذيانها الحزين قد اتهمت بعض أهالي القرية بقتل ابن أخيها، خاصة أولئك الذين كانت تمقتهم، وعلى رأسهم "الشرجبي"، وكيل الشيخ العارض، الذي توارى عن الأعين في ذلك اليوم خوفاً من أن يستغل خصومه هذه الاتهامات لتصفية حساباتهم معه، خاصة أن العمة "كُرامة" كانت تتهمه بكرهه الدائم لـ"كريم" وتعمده عدم إسعافه قبل سنوات طويلة في حادثة انقلاب سيارة.

الشيخ العارض لم يأبه كثيراً لهذه الاتهامات، التي يعلم، أكثر من أي شخص آخر، مبرراتها، وعدم صحتها... كما أنه، في ما يبدو، كان قد توصل إلى قناعة مفادها أن "كريم" انتحر فعلاً. ولكي لا يثير الكثير من الأقاويل والإشاعات، ولتجنيب القرية وأهلها الكثير من المشاكل، قرر أن يقفل هذا الملف "اللغز" بسرعة، وإلى الأبد... أو هذا على الأقل ما ظنه في حينه.

العمدة ظل صامتاً، يفكر بعمق وهو يحدق في وجه الشيخ العارض... كان يحس أن هناك شيئاً ما يخفيه الشيخ، ولن يفصح عنه الآن... فهو لم يؤكد انتحار "كريم" صراحةً، إذ من الصعب تصديق ذلك... لكنه بالتأكيد لم يكن ليتجاهل قضية قتل، أية قضية قتل، فما بالكم بمقتل "كريم"؟!... كانت الشكوك تراود العمدة، والغموض يزيد من صداع رأسه، ولولا ثقته بالشيخ العارض، الذي كانت تجمعه مع "كريم" علاقة أبوة حقيقية، لما انصاع أبداً لمثل هذه الترتيبات المتسارعة...

بعد مقتل "كريم" ظل عقل الشيخ العارض لفترة طويلة مذهولاً... مشوشاً، كشاشة تلفزيون قديم، كلما فكر بعمق في حقيقة ما حدث. كان كلما ركز ذهنه على تفاصيل معينة هام بعيداً عن أي خيط يمكّنه من الوصول إلى شيء ما، أي شيء!... كما لو أن قوة مغناطيسية طاردة كانت تقذف به بعيداً كلما اقترب من أي شاطئ في محيط حيرته الهائج.

بعد انتهاء مراسم الدفن واستقبال المعزين، تدهورت صحة الشيخ العارض كثيراً، فغادر ليلاً في اليوم نفسه عائداً إلى العاصمة، بعد أن أوصى العمدة بالقيام بواجب العزاء الرسمي الذي استمر ثلاثة أيام كما هو معتاد، ليعود إلى القرية في اليوم العاشر مستقبلاً

المعزين مرة أخرى. بعدها بأيام غادر الشيخ العارض القرية، ولم يعد إليها إلا بعد أربعة أعوام، كانت هي أطول فترة غياب له عن قريته التي فيها ولد وتربى، وفيها سيُدفن أيضاً بعد سنوات قليلة.

27

كانت "رحمة بنت علي ناجي" من ضمن النسوة اللواتي رافقن "زينب"، تلك المرأة التي قدمت من المدينة في عصر ذلك اليوم الحزين، إلى غرفة "كريم"، حسب طلبها. كانت جثة "كريم" قد نُقلت إلى غرفة العمة "كُرامة"، بعد أن تحولت غرفته في ذلك الوقت إلى ما يشبه المزار، خاصة من الفضوليين، وما أكثرهم في قريتنا، على الرغم من أن العمدة كان قد أوصى مراراً بعدم فتح الغرفة لأيٍّ كان حتى حضور فريق التحقيق الجنائي، الذي سيأتي صباح الغد حسب قول "الشرجبي" قبل أن يختفي بعد عصر ذلك اليوم. هذا إلى جانب خشيته من أن يتم سرقة أي من مقتنيات "كريم"، كما يحدث أحياناً في مثل هذه المواقف.

تتذكر "رحمة" أن أحداً منهن لم يتفوه بكلمة وهن يفتحن باب الغرفة لهذه المرأة التي لم يسبق أن رأينها من قبل، والتي كان لحضورها رهبة غير مفهومة، فمنذ أن دخلت عليهن ساد المكان نوع من الصمت المهيب، كما لو أنها كانت شبحاً مهاباً لإحدى أميرات الحكايات الشعبية.

- كنا نتبعها كتلميذات معاقبات... ما أسخفنا!... لا أتذكر حقاً؛ لكن قوامها كان فارعاً، وكان لصوتها صدى غريب، كأنها كانت تتحدث من داخل كهف بارد!...

كانت "رحمة" تصف ما تتذكره كما لو أنه حدث منذ عشرات السنين.

- كان الجو بارداً جداً... وكنا واقفات مندهشات ونحن نراها وهي تذرع أرضية الغرفة ذهاباً وإياباً كمن يبحث عن شيء أضاعه!... لا أتذكر حقاً؛ لكنها بعد وهلة أخرجت من حقيبتها علبة خشبية مغطاة بجلد أسود، تتوسطها دائرة زجاجية... في البدء لم نميز تلك العلبة؛ لكن سرعان ما بدأت تشبه إلى حد بعيد آلة تصوير قديمة، كتلك التي نشاهدها في الأفلام التي يعرضها التلفزيون... ستلتقط صوراً... المجنونة! قلنا لأنفسنا...

- وهل فعلت...؟

- بدأت إحدانا بالاعتراض... لا أتذكر مَن كانت...! لكن "زينب" كانت للتو في طريقها للخروج من الغرفة... بل ربما كانت قد خرجت... لا أتذكر حقاً!... لهذا لم نفعل شيئاً... كل ما أتذكره بعد ذلك أننا سرنا وراءها نودعها حتى سلالم البيت وعدنا أدراجنا ونحن نرتجف من البرد...

- وماذا بعد؟

تسخر "رحمة" من نفسها ضاحكة:

- لا شيء... كانت كمن لم يكن... نسيناها تماماً، وحين تذكرناها أسميناها "زينب"... هذا كل ما فعلناه!...

الغريب حقاً أن "رحمة"، أو أياً من تلك النسوة، لم تبلغ أحداً عن هذا الأمر إلا بعد أسابيع، ولهذا، لم يطّلع أعضاء لجنة التحقيق الجنائي على هذه الحادثة، ولا على تفاصيل أخرى كثيرة؛ لكن لم يكن هذا الأمر مستغرباً؛ إذ كيف لهم أن يعرفوا شيئاً يفيد التحقيق في قرية لا تحتفظ بذاكرتها إلا لسويعات قليلة؟!

كانت اللجنة المكونة من ضابطين (الأول برتبة "نقيب" والثاني برتبة "ملازم ثانٍ" حديث التخرج) وثلاثة عساكر، قد وصلت متأخرة صباح يوم الدفن. توقفت سيارتهم "الجيب" بطريقة عشوائية في طرف ساحة القرية المزدحمة بسيارات المعزين، قبل أن يتوجهوا بصحبة العمدة، الذي لم يستطع إخفاء امتعاضه من تأخرهم، إلى منزل "كريم"، حيث صافحوا باحترام الشيخ العارض الذي كان في استقبالهم. دخلت اللجنة غرفة "كريم" على عجل، وتحت إلحاح العمدة لم تمكث فيها كثيراً، فلم يعد هناك شيء في مكانه، ماعدا آثار الدماء التي دكن لونها على أرضية الغرفة وعلى الحائط، وهي الآثار التي لم يذكرها التقرير الجنائي، الذي كتبته

اللجنة سريعاً لإغلاق الملف، نزولاً عند إلحاح العمدة، ورغبة الشيخ العارض، الذي كان سخياً معهم.

لم يجدوا ما يبرر استجواب أهالي القرية، واكتفوا بما شاهدوه في ذلك الصباح. بعد أن شاركوا في مراسيم الدفن وقدموا العزاء، غادروا القرية سريعاً، ليستكملوا في اليوم التالي بقية الإجراءات الشكلية الأخرى.

جاء في التقرير الذي كُتب بخط رديء على ورق فولسكاب مسطر أن طلقتين ناريتين من عيار [بدون رقم] انطلقتا من بندقية كلاشينكوف واخترقت إحداهما صدر القتيل، والأخرى فخذه الأيمن، وأن سبب الوفاة كان نزيفاً استمر لنصف ساعة. لم يذكر التقرير أي تفاصيل مهمة أخرى، فلم يحدد مثلاً متى حدثت الوفاة، ولا ما إذا كانت الطلقتان قد خرجتا من البندقية نفسها، تلك التي وجدتها العمة "كُرامة" ملقاة بجانب "كريم" في صباح ذلك اليوم، أم من بندقية أخرى؟! ولا يعلم إلا الله كيف عرف المحققون أن النزيف استمر نصف ساعة!

لكن، هل كان متوقعاً حقاً أن يعرف أعضاء لجنة التحقيق كل تلك التفاصيل، وهم الذين بالكاد استطاعوا أن يعاينوا الجثة بسرعة كإجراء ضروري قبل أن يغادروا المنزل

وينضموا، تحت إلحاح العمدة النزق، إلى جموع المشيعين؟!
كان الشيخ العارض قد شرح لهم الأمر بتفاصيله، وامدهم بالأوراق الرسمية اللازمة، من إفادة الشهود وتنازل أولياء الدم عن القضية، كما قام بتسليمهم بندقية الكلاشينكوف التي وجدتها العمة "كُرامة" بجانب الجثة وقد تراكمت عليها بصماتها مع بصمات آخرين... كان الأمر محسوماً بالنسبة للضابطين، فأي طلبات أو إجراءات أخرى كانت ستبدو، كما هي العادة، محاولة بائسة لعملية ابتزاز مستحيلة.

28

لجنة التحقيق لم تعلم أيضاً أن البندقية التي تسلمتها من الشيخ العارض (والتي تم مصادرتها بعد ثلاثة أشهر بشكل غير قانوني لعدم المطالبة بها) لم تكن هي نفسها البندقية التي وجدتها العمة "كُرامة" بجانب جثة "كريم". كانت العمة "كُرامة" ما تزال تجهش بالبكاء مع بقية النسوة حين أبلغها الشيخ العارض أنهم بحاجة إلى تسليم البندقية للجنة التحقيق التي ستصل إلى البيت بعد قليل. ذهبتْ العمة إلى غرفتها، وعندما عادت كانت ما تزال تبكي، وبدون تأثر أخبرت الشيخ العارض:

- لم أجدها!...

نظر إليها الشيخ العارض ملياً قبل أن يسألها:

- هل بحثتِ جيداً؟

- نعم... لم تعد هناك... ربما سُرقت!

نظر إليها ملياً مرة أخرى، وزمَّ شفتيه وهزَّ رأسه موافقاً:

- ربما!...

- أين حليمة؟
- ستصل بعد قليل...
- ستدفنونه إذاً وهي بعيدة؟! لن تغفر لك!

قالت بلوم وأجهشت بالبكاء... اقترب منها ووضع يده على رأسها وقبله باحترام، وأضاف وقد حاول أن يتحكم في تحشرج صوته:

- قدّر الله وما شاء فعل... لا تفكري بهذا الأمر الآن... لقد ضاع منا ما لا نستطيع تعويضه أبداً... كل شيء آخر يهون!...

كانت العمة "كُرامة"، قبيل وصول "زينب" في عصر اليوم الذي مات فيه "كريم"، قد جمعتْ ملابس "كريم" وممتلكاته ووضعتها في صرة وأدخلتها في إحدى حقائبها الحديدية المزينة برسومات بدائية، ووضعت البندقية خلف حقيبة أخرى. كان الشيخ العارض يعرف حرصها جيداً؛ لهذا ظن في حينه أنها لا تريد تسليم البندقية خوفاً من مصادرتها، أو لسبب آخر لا بد أنها ستفصح عنه يوماً ما... لهذا قام بتقديم إحدى بنادقه عوضاً عنها كي لا يعطي ما يبرر تعطيل سير إجراءات التحقيق. كان ذلك هو الحل المناسب، حتى لو كانت البندقية قد سُرقت حقاً كما قالت، فمهما كان تعاون أعضاء لجنة التحقيق معه، ومهما كانت شكلية الإجراءات التي

يقومون بها، كان لا بد لهم أن يستلموا على الأقل أداة الجريمة التي أفاد بوجودها الشهود.

كان التقرير الجنائي قد استبعد وجود جناة، مضيفاً أن جميع أقوال الشهود وأولياء الدم تعزز الانطباع الكامل بأن القتيل ربما أطلق النار على نفسه بالخطأ، وأن أولياء الدم قد تنازلوا عن القضية.

وهكذا ظلت الأسئلة الكثيرة التي تناقلتها الألسن منذ الحادثة بدون إجابات. لماذا ظل "كريم" ينزف ولم يطلب المساعدة؟! هل كان فاقداً للوعي؟! وكيف لم تسمع العمة "كُرامة" صوت الطلقتين، وهي التي كانت نائمة على بعد جدارين فقط من الغرفة؟! ولماذا كانت النافذة مفتوحة؟! لماذا ينتحر "كريم" وهو الذي يشهد له الجميع بهدوئه واستقامة تصرفاته العاقلة؟! حتى تحولاته النفسية الأخيرة لم تكن كافية لإقناع أحد، فلطالما أصيب بحالات اكتئاب مشابهة في الماضي، وربما كانت أكثر حدة؛ لكنها لا يمكن أن تفضي إلى شيء مهول كهذا! هل هناك من قاتل؟! ومن عساه يكون؟! لا يُعرف له عدو في المنطقة... هذا مؤكد. هل كان القاتل من خارجها يا ترى؟! وكيف وصل إلى غرفة "كريم" في ذلك الوقت؟! ثم ما سر تلك الآثار التي وجدت على جدران الغرفة والتي لم يأبه لها أحد في حينه؟!

حتى الشيخ العارض نفسه لم يتساءل عن معناها. هل كانت طلاسم أو رموزاً تكمن في طياتها الإجابة على كل هذه الأسئلة؟! أم كانت محاولات أخيرة لمستغيث مبحوح الصوت يحتضر؟! ومن هي "زينب"، تلك المرأة الغريبة التي أتت بعد ساعات من نبأ مقتله؟! كيف عرفت بالخبر؟! وكيف لم يسألها أحد من هي أو ما سبب حضورها؟! ثم لماذا طلبت الذهاب إلى غرفة القتيل قبل مغادرتها؟! وهل التقطت صوراً حقاً؟! ولماذا!...

* * *

- عقول أبناء قريتنا مصابة بالبلادة دون شك، رجالاً ونساء، وربما الأطفال أيضاً... بل يعني الأطفال بالتحديد...

هذا ما كان يردده العمدة دائماً... فهل كان على حق؟! الغريب أيضاً أن العمدة، المولع بالقصص الغريبة، لم يصدق أبداً حادثة التقاط الصور:

- رحمة مخبولة... أعرفها... هي بنت الملعون جاري... يعني أعرفهم جيداً!
- وماذا عن الأخريات يا عمدة؟! لقد أكدن هذا الكلام!...
- مخبولات أيضاً... يعني مصروعات... صدقوني! بهائم لا يفقهن شيئاً...

عوضاً عن ذلك كان العمدة يفضل ترديد حكايته عن إعجابه الشديد بجمال "زينب"، وعن سائقها النزق الملعون الذي رفض التخلي عن كوفيته المزركشة، مضيفاً كعادته في كل مرة تفاصيلَ جديدة، منها أن "زينب" لم تكن سوى "أميرة" من "حراز" جاءت لزيارة قبر الملكة "أروى"؛ لكن الله كان قد بلاها بسائق غبي ضل الطريق إلى "جبلة"، فنزلت لتستوضح من أهالي القرية عن الوجهة الصحيحة، ولم تستطع، تأدباً منها، إلا مشاركة النسوة العزاء. عندما يدرك أن روايته لم تحز على الإعجاب المطلوب يعقد حاجبيه ويصرخ مؤكداً:

- نعم، هذا ما حصل يا ملاعين!... صدقوني!
- لكن يا عمدة...!!
- أعرف أنكم أغبياء لن تفهموا شيئاً... يعني من لديه سائق أرعن كذلك الملعون لا بد وأن يكون قد تعود على أن يضيع في قرى مخبولة كقريتنا هذه!...

29

بعد أسابيع من اندلاع حرب صيف 1994، ومن اختفاء "كريم" للمرة الثانية، عاد الشيخ راجح العارض مع زوجته إلى القرية، بعد أن ضاق ذرعاً بالعاصمة، التي انقلب حالها رأساً على عقب ونزح معظم ساكنيها إلى قراهم، خاصة بعدما سقطت صواريخ (سكود) على بعض أحيائها السكنية...

بعد أقل من أربعة أعوام من إعلان الوحدة بين دولتي اليمن، وبالرغم من تلك البهجة العارمة التي غمرت نفوسهم وجعلتهم في حالة استثنائية من السعادة والأمل، لم يستطع اليمنيون أن يحافظوا على، ما يعتبره البعض، إنجازهم التاريخي النادر الذي تحقق في غفلة من الزمن، فتقاتلوا فيما بينهم بعد أن دخلت البلاد في أتون صراع سياسي مرير تخلله الكثير من حوادث العنف والاغتيالات. ففي ظهيرة يوم مشمس، وبالتحديد في السابع والعشرين من أبريل من ذلك العام، انطلقت الشرارة الأولى للحرب، داخل أسوار معسكر "عمران" في شمال البلاد، بين جنود "اللواء الثالث مدرع" الجنوبي وجنود "اللواء الأول مدرع" الشمالي. وما هي إلا

لحظات حتى انهالت حمم الأسلحة الخفيفة والمتوسطة، وقذائف المدفعية والدبابات، على مقر قيادة المعسكر وعلى عنابر سكن الجنود، الذين سيُقتل أكثرهم قبل أن يستوعبوا ما حدث، أو تتاح لهم فرصة لالتقاط بنادقهم أو حتى الفرار بعيداً... كان المشهد مريعاً... وسالت دماء الإخوة من جديد، وبدأت الحرب الأهلية رسمياً، وانقسمت البلاد... فشلت كل مساعي التهدئة... الحرب ازدادت ضراوة، وبعد عدة أيام انتقلت المعارك جنوباً، وأصبحت الصورة أكثر غموضاً وفوضى، ولم يعد يُسمع بعدها أي صوت سوى صوت الرصاص والمدافع.

كانت عودة الشيخ العارض قد بعثت بعض الطمأنينة والأمان في نفوس أبناء القرية الذين أصابهم القلق، حتى أولئك الجنود من أبنائها، الذين رفضوا المشاركة في الاقتتال وهربوا من معسكراتهم، تشجعوا وبدؤوا يظهرون علناً في أزقتها بعد فترة من اختبائهم في بيوتهم، بل إن بعضهم بدأ بالتواجد في مقيل الشيخ، الذي أصبح يضج يومياً بالرواد، فقد كان المكان الوحيد الذي يتيح للجميع الاستماع لآخر مستجدات الحرب، ولآراء وتحليلات الشخصيات السياسية، من أبناء المنطقة ومن خارجها، الذين كانوا يأتون للمقيل في معظم الأيام بعد أن آثروا الانعزال والاكتفاء بمتابعة الأخبار في تلك الأيام العصيبة. كانوا عادة ما يختلفون حول الحرب وأسبابها،

وتفاصيل سير المعارك... ترتفع أيديهم في الهواء وتعلو أصواتهم وتختلط تكهناتهم وتتعدد الآراء والإشاعات. كان النقاش بين المختلفين يحتد في بعض الأحيان، خاصة بين مجموعة "المُنَظِّرين"، أولئك الذين يمقتهم العمدة ويطلق عليهم (بطريقته الخاصة) صفة "الأشاوث"، وما إن يبدأ أحدهم بالانفعال وهو يشطح بفكرة ما، رافعاً صوته أكثر من اللازم حتى ينتظر الحضور ردة فعل العمدة، الذي عادة ما يقاطعه بتهكم متعمد قائلاً:

- أيوة! أيوة!... كلامك صحيح يا "أوستاز"...

يتعمد العمدة نطقها بهذا الشكل من باب السخرية، فيتبرع أحدهم ليلفت انتباه الجميع إلى كلام العمدة قائلاً بصوت مرتفع:

- كيف يا عمدة؟! ماذا قلت؟!

- قلت إن كلام "الأوستاز" صحيح... يعني... ما أحسن الحرب عند المتفرجين!...

فما يكون من هذا "الأستاذ" إلا أن يصمت مُحرجاً، وقد علت ضحكات بعض الحضور، خاصة أولئك الذين يخالفونه الرأي. في تلك الفترة كان العمدة يمضغ القات صامتاً معظم الأحيان، ربما تماشياً مع صمت الشيخ العارض، صديق طفولته وأقرب الناس إليه، والذي كان خلال الأزمة مهموماً واجماً، ومقتضباً في حديثه.

كان من النادر أن يختلفا؛ فعلى الرغم من اختلاف شخصيتيهما إلا أنهما كانا دائماً متفاهمين، خاصة في ما يتعلق بالأمور الجادة. لم يكن هذا مستغرباً لمن عرف علاقة الصداقة الكبيرة التي جمعت أبويهما من قبل، فقد عاش العمدة معظم طفولته في "دار البخور"، مثل كثير من أبناء القرية آنذاك، خاصة في تلك السنوات التي قضاها والده في المهجر. كان لتقارب العمر بينهما أثر كبير في توطد أواصر الصداقة بينهما منذ الطفولة، إضافة إلى ما كان يبديه والد الشيخ العارض من اهتمام خاص بالعمدة، حتى أنه كان في كثير من الأحيان يبالغ في تدليله. لهذا كان يجمع العمدة والشيخ العارض مزيجٌ محكمٌ من محبة أخوية وصداقة خالصة لم تستطع الأيام إلا أن تزيدها صلابة.

كان المقيل عادة ما يستمر إلى وقت متأخر. وعندما كان يتسنى للعمدة النظر إلى أضواء القصف التي تأتي من الجنوب البعيد، وبقدر ما كانت تمكنه من ذلك نظارته الطبية السميكة التي بدأ يلبسها في السنوات الأخيرة، كان يصرخ بصوت مستفز، وقد ضاق من السكون الذي خيم على المقيل:

- الله ينصركم!

فيستيقظ الحاضرون من شرودهم، ويبدؤون بالإلحاح عليه لتوضيح من يقصد... حينها كان العمدة يرد بخبث:

- النصارى طبعاً... يا ملاعين!

فترتفع ضحكاتهم، ويتغير جو المقيل المكتوم، ويسود جو من المرح يحاول الجميع أن يتشبث به ولو لفترة قصيرة.

﴿30﴾

كان الشيخ العارض طيلة فترة الحرب، التي استمرت لأكثر من عشرة أسابيع، مريضاً، شاحب الوجه، يشكو اضطراباً مستمراً في معدته، قليل النوم... لم يره أحد من قبل بهذا الضعف. في صباح أحد تلك الأيام، وبينما هو خارجاً من الدار متوجهاً نحو القرية، تتبعه زوجته، تكدر مزاجه كثيراً عندما جاءت العمة "كُرامة" تسأله بحرقة عن "كريم"، الذي طال غيابه، ولم يسمع أحد عنه شيئاً. حاول جاهداً أن يُفهمها أنه مثل الآخرين لا يعرف عنه شيئاً، محاولاً طمأنتها؛ لكن دون جدوى، فقد كان ظاهراً أنه يتصنع الهدوء، ولهذا ظلت تلح عليه بالسؤال كما لو كانت مؤمنة بأنه يعرف مكانه.

- كريم عاقل... لا تخافي! يعرف كيف يحافظ على نفسه!
- هذه حرب! ليست مزحة يا راجح!
- أعرف... أعرف... لكن لا تقلقي! إن شاء الله خير...
- لا أقلق! كيف لا أقلق؟! لا... أنت تعرف أين ذهب... أرجوك أخبرني!

فقد الشيخ العارض هدوءه فجأة، ليصرخ في وجهها على غير العادة:

- خيرة الله عليك! قلتُ لكِ لا أعرف!

لم تتوقع العمة "كُرامة" هذا الرد الذي لم تكن قد عهدته منه، فأجهشت باكية.. حينها تدخلت "أمي حليمة"، فاحتضنت العمة "كُرامة" تواسيها، وحدجت زوجها بنظرة عتاب حادة قبل أن تخاطبها بحنو:

- يا كُرامة! لا تغضبي من راجح، فأنت تعرفين كم يهمه أمر "كريم"... أنتِ تعرفين ذلك... ولا يمكن أن يخفي عليك أين هو... أنا متأكدة أنه مثلنا لا يعرف عنه شيئاً... ولهذا تحدث معك بهذه العصبية!...

حاول الشيخ العارض، وقد أحس بالأسف والحرج، أن يواسي أخته في الرضاعة؛ لكنها كانت قد ابتعدت مع زوجته نحو الدار وهي ما تزال تجهش بالبكاء، فلم تسمعاه وهو يقول:

- لا بد من خير إن شاء الله! لا تقلقي!

نظر بأسى نحوهما قبل أن يبتلعهما باب الدار، وتوجه ببطء إلى القرية، وحيداً، وقد التفَّتْ حول رجليه بعض كلابه وهي تهز ذيولها بمودة صادقة، متأهبة لمرافقته، وللشجار الحتمي مع بقية كلاب القرية. نظر إليها بحنو ولاطفها وهو ما يزال شارد الذهن.

كان الشيخ العارض مولعاً بتربية الكلاب منذ أن ترعرع يتيماً في "دار البخور". كانت الدار تضج بالساكنين... زوجتي أبيه، جدته التي لم يعد يتذكرها تماماً، أخيه الكبير صالح، أخواته، بعض عماته وأولادهن، مرضعاته من نساء القرية وبعض أولادهن، أخريات، العمدة وبعض إخوته، خُبرة (21) وأصدقاء أبيه... وآخرين لم يكن يعرف حتى قرابتهم له. كانت الدار مكتظة، صاخبة، ودافئة، كسوق شعبية صغيرة، وهكذا ظلت على الدوام حتى سنوات قليلة ماضية... أما الآن فهي باردة، شبه خاوية، بعد أن تفرقت بساكنيها السبل أو اختطفهم الموت.

واصل الشيخ العارض سيره ببطء وهو يتذكر كيف كان في صغره يقوم بتهريب الجراء خلسة إلى داخل الدار وإطعامها أقراص خبز الذرة التي يسرقها من المطبخ رغم اعتراض نسوة الدار. قليلون من أبناء القرية الذين ما يزالون يتذكرون ذلك اليوم البعيد الذي كاد فيه أن يدفع حياته ثمناً لإنقاذ أحد جرائه الذي علق بإحدى الشجيرات التي نبتت على جانب جدار السد المنتصب على حافة هاوية الشلال الكبير.

(21) الخُبرة: المرافقون والعساكر.

كانت الظهيرة، وكان في السابعة تقريباً... كان ما يزال يسبح وحيداً... عاودت الشيخ العارض ذكرى ذلك اليوم: سماعه صوت الجرو وقد علق بين الأغصان المتشابكة... نزوله بحذر من التلة الطينية المحاذية للجدار... اقترابه من الجرو... غصن الشجرة الذي انكسر تحت قدميه في الوقت نفسه الذي احتضنت ذراعاه المبتلتان الجرو الذي لم يتوقف عن هز ذيله... هلع السقوط المفاجئ... هدير مياه الشلال التي غمرت جسده ساحبة إياه بعنف إلى الأسفل نحو المنحدر... الجرو وقد كاد أن ينزلق من بين يديه ويسقط في الهاوية... يده المتشبثة بأغصان هشة... الدقائق العصيبة التي بدت وكأنها دهر... أيادٍ ملائكية لا يعرف من أين جاءت رفعته بخفة إلى الأعلى ووضعته ممدداً على ظهره فوق جدار السد وهو ما يزال محتضناً الجرو بكلتا يديه... أصوات مختلفة تقترب منه ثم توقظه بعد أن أغمي عليه...

وفجأة، وكما يحدث له عادة كلما تحركت عجلة ذاكرته، بدأ شريط الذكريات يتحرك بسرعة إلى الأمام، لينقله إلى ذكرى مؤلمة طالما حلم باليوم الذي يستطيع فيه أن ينساها لكن دون جدوى: ذكرى موت "علي" أمام عينيه... ابنه الوحيد... "علي"... خرجت زفرة مفاجئة من رئتيه، وقبل أن تتكور الدموع في عينيه، ويضيق قفص صدره، استطاع بجهد أن يتملص من هذه الذكرى وتفاصيلها المؤلمة ليعاود

سيره مكتئباً نحو القرية وقد نسي لماذا كان متوجهاً إلى هناك، تسبقه كلابه التي كانت ما تزال تهز ذيولها بتودد...

﴿31﴾

كان "كريم" قد غادر القرية بعد أيام قليلة من اندلاع الحرب، دون أن يخبر أحداً. البعض من أهالي القرية تبرع بالقول إنه التحق بـ"القوات الشرعية". آخرون قالوا إنه انضم إلى قوات الانفصاليين. غيرهم زعموا أنه شوهد ينقل بعض الجرحى في مدينة الضالع؛ دون أن يكون أيٌّ منهم على يقين من ذلك، كما جرت العادة.

العمدة، الذي لم تعجبه جوقة الآراء المتعددة هذه، لم يستطع أن يقاوم الإغراء ولا أن يظل بلا حكاية، فقال إنه شاهد "كريم" في التلفزيون، ضمن الحشود التي ظهرت أثناء هدم سجن "الفتح" في عدن بعد أن انتصرت "قوات الشرعية" وأسدل الستار على آخر فصول الحرب المفجعة.

عاد "كريم" إلى القرية بعد ثلاثة أيام مكثها في صنعاء في منزل الشيخ العارض الذي كان قد غادر القرية بعد أسبوعين من انتهاء الحرب. كان قد أطلق لحية شعثاء ذكرت أبناء القرية بتلك الأيام التي تشرد فيها بعد وفاة زوجته. كان العمدة أكثر المتأثرين للهيئة

التي عاد بها "كريم"، وكان متذمراً أكثر ما يكون من صمته وانعزاله عن الناس، إضافة إلى توقفه عن مرافقته في الجولات الصباحية المعتادة. كان العمدة إذا ما سأله أحدهم عن "كريم" يرد بتصنع واضح:

– أخبل! مش رجّال! لم يُحضر معه أي شيء... يعني ولا حتى مسدس...!

كان العمدة يشير إلى أولئك الذين عادوا من الحرب محملين بما استطاعوا من غنائم متنوعة؛ إذ نُهبت مدينة عدن في ذلك الصيف من قبل المنتصرين ومن ساندوهم من المليشيات الدينية المختلفة. لم تسلم المنازل ولا المنشآت الحكومية والخاصة! حتى سيارات الإسعاف تم نهبها خلال الفوضى التي استمرت أياماً، تاركة جراحات لن يندمل بعضها لسنوات طويلة! منذ ذلك الحين لم تعد عدن، التي رُفع في سمائها علم الدولة الجديدة قبل أربعة أعوام فقط، كما كانت!... وربما لن تكون أبداً! لكأنها موعودة دائماً بجراحات لا تنتهي؛ إذ لم تكن قد مضت سوى ثماني سنوات ونصف منذ أن شهدت المدينة كارثتها الدموية الكبرى خلال ما عُرف بأحداث يناير الدامي من عام 1986، حين سالت على شوارعها دماء الإخوة في حرب أهلية عنيفة لم تدم

سوى أسابيع قليلة؛ لكن وحشيتها الصادمة لم تكن مسبوقة في تاريخ اليمن الطويل والمترع بالحروب والاقتتال.

32

لم يمضِ وقت طويل على تكوم السحب الداكنة حتى هطلت أولى قطرات المطر، الذي أصبح بعد دقائق قليلة عاصفة تفاجأ بها الجميع. تحت وابل المطر كان العمدة يصرخ ويطلق اللعنات كعادته، مهرولاً نحو منزله وقد أوحلت التربة تحت قدميه وحاصرته زخات البَرَد التي عادة ما تضر بالمحاصيل الزراعية، ولاسيما القات، الذي أصبح مورداً مهماً للمزارعين بعد أن ازداد تعاطيه من قبل الجميع في السنوات الأخيرة، والذي تتهالك أوراقه تماماً تحت وطأة ضرباتها. وما هي إلا لحظات حتى بدأت ميازيب البيوت تقذف المياه، والمشارب الصغيرة في أخاديد الجبال تمتلئ بالمياه المنحدرة نحو مجرى السيل الكبير.

وعلى الرغم من أصوات الرعود المستمرة والضوضاء التي عادة ما يحدثها مطرٌ غزيرٌ كهذا، إلا أن زعيق العمدة كان ما يزال يُسمع من بعيد، وهو يوزع لعناته على كل شيء تقريباً، على بناته وزوجات أبنائه المتذمرات، أبناءه، العباد والبلاد... على المطر والسماء، وعلى نفسه أيضاً! كل ذلك لأنه لم يستطع، ولا نسوة

أبنائه، إنقاذ المفارش والبطانيات التي نُشرت على سطح المنزل لتجف بعد أن غُسلت صباح اليوم في مياه "الجوهرة".

شاهد العمدة ما أصاب بطانيته الأثيرة من بلل، ووقف رافعاً يده إلى أعلى صارخاً:

- نطلب منك غيثاً فتجيبنا بهذا الهلاك؟! يعني ملعون هذا المطر! لا نريده... يعني... لا نريده...

عندما سمع "علي ناجي" زعيق العمدة ولعناته، أخرج رأسه من نافذة غرفته المطلة على سطح دار العمدة، وقال له معاتباً:

- استغفر الله يا عمدة! لا يجوز هذا الكلام! إنها تمطر... ستأخذك الصاعقة بسبب ما تقوله!

عندما عرف العمدة، وقد أصبح مبتلاً، مصدر الصوت، ترك بطانيته الأثيرة المبتلة تسقط من يديه ثم تنطط عليها بعصبية حتى سقطت عمامته من على رأسه، وتوجه بخطى متعثرة نحو نافذة جاره، وكادت قدماه عند حافة السطح أن تسقط شجيرات الريحان والشذاب المزروعة في أصص من العلب المعدنية، قبل أن يزعق بغضب:

- استغفر الله أنت يا مخنوث، فأنت مليء بالذنوب! يعني مثل أبووك يا ملعون!

كان منظر العمدة مضحكاً جداً، ولم تستطع زوجات أبنائه، الغارقات في الضحك، ثنيه عن الشجار، أو من الاقتراب كثيراً من حافة سطح المنزل، مشرئباً بعنقه الركيك ورأسه الصغير نحو نافذة جاره:

- ها أنت بدلاً من أن تنزل من عرشك وتساعدنا تجلس مثل القـحبة تنظر من النافذة... ثم ما هذا الذي بيدك؟! شاي؟! يعني نحن غارقون وأنت تتفرج وتشرب شاي يا ملعون؟!...
- يا عمدة لا يجوز... عيب... ثم أنا لا أمزح... بالفعل ستأخذك الصاعقة أقول لك...
- صاعقة؟! فلتأخذك الصاعقة أنت وأمك وأبناءك!... يعني كلكم يا ملعون! يا خنزير! يا ديوث! يا... يا...!

لم يتوقع "على ناجي" كل هذا الانفعال والقسوة من العمدة، ولم يعجبه أن يتلقى كل هذه الضربات الجسيمة أمام بنات العمدة وزوجات أبناءه، فأغلق النافذة بعصبية واضحة، متحدياً ومتوعداً، وهو ما حدا بالعمدة للنزول من السطح بقوة شاب في العشرينات من العمر، متوجهاً نحو باب جاره، والغضب يملأ رئتيه، مستعداً لعراك يفرغ فيه غضبه؛ غير أن "علي ناجي" خرج من باب منزله مبتعداً عن العمدة وهو يركض خلف أحد أبنائه بهلع... أدهش هذا الموقف العمدة وتبخر غضبه دفعة واحدة. "إلى أين ذهب هذا

الملعون؟!"، قالها، وبفضول تبع جاره الذي كان قد انعطف عند أحد الأزقة باتجاه منحدر الشلال غير البعيد الذي كان قد بدأ يضج بصوت السيل الهادر... عندما وصل العمدة إلى نهاية الطريق استطاع أن يلمح "كريم" وهو يحمل على ظهره العجوز "تقية"، جارته اللدود وأم "علي ناجي"، قبل أن يضعها على الأرض مثل كيس قماشي مبتل، تاركاً أبناءها، الذين كانوا قد تجمعوا حولها، ليأخذوا بيدها ويعيدوها إلى المنزل بينما كانت تمطرهم بلعنات واهنة.

ظل أبناء القرية لعدة أيام يتناقلون خبر إنقاذ "كريم" للحاجَّة "تقية"، التي حاصرتها أولى دفعات السيل فجأة؛ غير أن العمدة، الذي لم يكن ليستسلم لهذه الحكاية الاحتفالية، كان عادة ما يعلق على تلك الحادثة بسخريته المعتادة:

- نعم... كان عملاً شجاعاً... لكن ما الفائدة؟!... يعني بالكاد أرسل الله ملك الموت إلى هذه القرية الموحشة للقيام بشيء مفيد... لكن حكمة الله...!
- عندها يقتنص أحدهم الفرصة كالعادة لتصعيد مجريات الحديث قائلاً بتصنع:
- لا يصح يا عمدة... هذه جارتك... "كريم" أنقذها، وسيجازيه أرحم الراحمين خير الجزاء...

- خير الـ... ماذا؟! ومن قال لك هذا يا ملعون؟! لقد كان هذا أسوأ شيء قام به في حياته... يعني سيُحشر في النار حتماً بسبب فعلته هذه... صدقوني!...

﴿33﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

والدي الصدر المحترم/ الشيخ راجح العارض الأكرم

تحية طيبة وبعد،،

أكتب لكم هذا راجياً أن تكونوا في خير وعافية، ولا نسأل إلا عن صحتكم الغالية. وصلت رسالتكم الكريمة وقد قرأتها أكثر من مرة وأنا مقتنع بكل ما جاء فيها، خاصة ما ذكرته عن ضرورة التأني. وكما كنتُ قد ذكرتُ لكم سابقاً فأنا لم أفعل أي شيء مما حذرتموني منه. . وأواصل الدراسة رغم المضايقات المستمرة، على رغم تدخل الأخ عمر سالم، وأنا أفكر الآن جدياً بالعودة إلى البلاد قريباً إن شاء الله، وحين نلتقي نعرض عليكم بقية التفاصيل وأخبار الشباب الذين يبلغونك السلام.

أوصلتُ قبل أمس رسالتكم مع المصروف للحاج عبده سعيد الذي فتح دكاناً جديداً في التواهي، وهو يبلغكم السلام ويقول أنه سيكتب لكم قريباً .

هذا وأبلغ سلامي لأمي حليمة وعمتي كرامة، وللعمدة الذي سأشتري له التبغ الذي طلبه، وسوف أرسله مع أول رسول. . .

وسلامي لجميع من يسأل عني.

ولكم خالص المحبة والاحترام،،،

ولدكم المطيع المشتاق لرؤيتكم

كريم

34

في إحدى ليالي شهر أبريل عام 1993، وبعد صلاة العشاء، كان "حمزة الماسر"، المدرس في أساسية "الثورة" النموذجية، وخطيب جامع قريتنا، يشعر بالفخر وهو يقف في زاوية الجامع بجانب الباب مكتفاً يديه، وأصابع كفه الأيمن تعبث بشعر لحيته الطويلة، يستمع باهتمام ظاهر لمحاضرة دينية لأحد قياديي حزبه البارزين تم ترتيبها كجزء من البرنامج الانتخابي لمنظمة الحزب في المنطقة... كانت أول انتخابات سينافس فيها الحزب باسمه الجديد بعد أن سُمح رسمياً بالتعددية السياسية في البلاد، وبدأت الأحزاب المختلفة تستقطب أعضاءها كيفما اتفق.

كانت المحاضرة تسير على ما يرام... العمدة، المتربع كعادته في الصف الأول، لم يتثاءب بعد... وقد ينتهي الأمر دون أن يضجر ويطلق لعناته على الضيوف. لم يكن للعمدة حزب ينتمي إليه، فقد كان تقريباً على قطيعة مع كل الأحزاب، الجديدة والقديمة، بمسمياتها المختلفة التي لم يكن يتردد من السخرية منها. لهذا لا يعرف أحد حتى إلى أي حزب يميل، فهو تارة يناصر هذا الحزب في النهار

لينقلب عليه في الليل معلناً مناصرته للحزب المناوئ، الذي لا يتردد لحظة واحدة في لعن كل أعضائه وقياداته في صباح اليوم التالي... باختصار، كان العمدة يغير انتمائه السياسي والحزبي بمزاجية، وبسرعة، كما يغير تبغ "مداعته".

وجد شباب القرية في هذه المسألة موضوعاً جديداً للتندر، يساعدهم ربما في كسر حدة الصراع الذي تزايد فيما بينهم منذ أن بدؤوا ينتمون بشكل رسمي لأحزاب مختلفة، ليصل هذا الصراع إلى ذروته أيام الانتخابات التي كانت تمدهم بشحنات مفرطة من تباغض محموم. في ساحة القرية، وبعد خروجهم من الصلاة، كانوا يجلسون حوله، وقد أشعل سيجارة، ويبدؤون ممازحته:

- أنت اشتراكي يا عمدة... أكيد!...

يهزّ العمدة رأسه نافياً، ويضيف مكشراً:

- كلا... الاشتراكيون ملاعين...! كذابون... لا فائدة منهم أبداً... خِرَقٌ مبتلة... صدقوني!...

يضحكون... ولكي لا تفوت هذه الفرصة الثمينة لسماع رأي العمدة في البقية يصرخ أحدهم:

- يا جماعة العمدة من المؤتمر... رجل دولة... مش أي كلام!...

يهز العمدة رأسه نافياً مرة أخرى، ويضيف وقد رفع حاجبيه مستنكراً:

- كلا... كلا... أصحاب المؤتمر ملاعين...! سَرَقْ!... يعني لصوص!... عليك أن تحترس منهم دائماً... يستطيعون أن يلتقطوا اللقمة من فمك بسرعة البرق!...
- إصلاحي إذاً؟!... أخيراً يا عمدة رجعت إلى جادة الصواب!...
- إلى جا... ماذا؟ المطاوعة ملاعين...! خنـــازيـــــــــر... يعني نجاسة على نجاسة... يحقدون عليك حتى وأنت جثة هامدة... صدقوني!...

يقهقه الجميع وقد تناسوا خلافاتهم، ثم يسترسل أحدهم ضاحكاً:

- العمدة من حزب الخُضر... صديق البيئة...!

حينها يشعر العمدة بالضجر، كأنما لم يعجبه الأداء المسرحي الذي أصبح دون المستوى، فينهض قائلاً باستهزاء وخبث صادم، وقد رسم بأصابع يده النحيلة إشارة قبيحة في وجه صاحب الصوت:

- صديق أمك يا ملعون!...

35

إذا كانت أيام الانتخابات تعتبر فرصة سانحة عند بعض الأهالي للحصول على بعض المال أو الإعانات من المرشحين أو مندوبيهم، وتتحول عند البعض الآخر إلى فترة عصيبة من الصراع والاستقطابات، خاصة الشباب منهم، فقد كانت بالنسبة للعمدة فرصة مواتية لاستعراض قدراته المتطورة في لعن الأشياء... عادة ما يظل منتشياً بالجدل الساخن بين رواد مقيله المكتظ، متسلياً بالخصومات التي تبدأ إرهاصاتها عند أول اختلاف يظهر للعلن حول تقاسم غير عادل للأموال التي يدفعها المرشحون بسخاء لشراء أصوات الناخبين... حينها يقرقر "مداعته" باستمتاع، وقد استرخى في جلسته قائلاً بمرح كبير:

- كلكم ملاعين...! منافقون ومرتشون!...

في تلك الليلة، كان العمدة بمزاج رائق وهو يستمع إلى المحاضرة الدينية، يهز رأسه الصغير، الذي يكاد يختفي تحت عمامته الكبيرة، متصنعاً استحسان ما يقوله الضيف، تماماً كما يفعل أحياناً أثناء

خطبة الجمعة، دون أن يبعد نظره عن مسبحته "اليسر" التي يخرجها من صندوق ثيابه لزوم المباهاة والاحتفاء بمثل هذه المناسبات.

كل شيء إذاً كان يسير على ما يرام... لهذا سرح الاستاذ "حمزة الماسر"، خطيب الجامع، بخياله مفكراً كيف ستثمر جهوده التي بذلها اليوم لإنجاح البرنامج. وبدأ يتذكر بنشوة القرض الميَسر الذي وعدَته به الجمعية الخيرية التابعة للحزب لإكمال بناء الغرفة التي حلم بها فوق سطح بيت أبيه المتهالك. كان إكمال الغرفة، التي شرع في بنائها منذ أمد بعيد، والتي ستؤويه مع زوجته وابنيه، حلماً طال مداه، بعد أن أصبح تكدسهم جميعاً في الغرفة المظلمة، التي يسكنها مع أمه المريضة، كابوساً مرعباً. وبينما هو سابحاً في أفكاره اللذيذة أمسكتْ يدٌ غليظة بثوبه الجديد، الذي لا يلبسه إلا في المناسبات المهمة، وشدته بجلافة. نظر شزراً نحو تلك اليد... إنه "عبده ثام"، الجالس عند قدميه، ينبهه أن الميكرفون الخارجي للجامع قد توقف عن العمل منذ دقائق. قفز بخفة إلى الخارج، وقد شعر بالارتياح بعد أن أدرك أن هذا الخلل لم يتسبب بتوقف المحاضرة، فالضيف كان مسترسلاً بالحديث، وربما لم يلاحظ الآخرون ما حدث...

- عندما صعدتُ السلم الخشبي إلى سطح الجامع لفحص الميكرفون رأيت "كريم" يطوي خيوطاً كهربائية بهدوء.

عرفت آنذاك أنه كان قد فصل أسلاك الميكرفون. غضبتُ واتجهتُ نحوه بسرعة... كان الموقف صعباً، وأصابني تردد لاحظه "كريم"، وقبل أن أقول شيئاً بادر قائلاً: "يكفي دوشة الانتخابات طوال اليوم يا حمزة!... نريد أن ننام!... أسمعوا محاضرتكم عبر الميكرفون الداخلي". طبعاً لم يكن الوقت متأخراً، ثم منذ متى ينام "كريم" مبكراً؟!... كان يختلق الأعذار دون شك... متعجرفاً كان على الدوام!... حاولت أن أخترع رداً مناسباً لتهكمه؛ لكنه لم يمهلني. ربّتَ على كتفيِّ بقوة، وودعني نازلاً السلم الخشبي وهو يحمل أسلاك الميكرفون معه. كان مستفِزاً... وكنتُ في مأزق، فلم أكن قد جربت منازلته من قبل... كان أكبر منا سناً، ولطالما كنا نخشاه في صغرنا، فقد كان شريراً... لهذا كنت حذراً، خاصة أنه لم يعد مأمون الجانب، وأصبحت طباعه عدوانية في الفترة الأخيرة. بعد لحظة تفكير قررتُ أن أعود وأدِّعي أن الميكرفون تعطل... سيتفهم الضيوف ذلك دون شك، وربما يأمرون، بشراء ميكرفون جديد... قلت في نفسي... وهذا ما تم فعلاً...

﴾36﴿

في الطريق بين المدرجات الزراعية، ومازالت برودة الفجر تسكن أوراق الأشجار، كان **"السُليّان"** حافياً كعادته، ومعوله على كتفه، يغذ السير نحو حقول العمدة، المعروفة بـ**"الأجراف"**، التي ورثها عن أبيه، وخاض في سبيل الحفاظ عليها عشرات الحيل والمشاجرات مع إخوته، و**"شريعة"**(22) استمرت سبع سنوات مع **"سُيادة"**، أخته الوحيدة، التي أصبح يكرهها أكثر من أي شيء آخر.

كان "السُليّان" أمهر رعوي(23) في المنطقة. وكانت أراضيه الزراعية، سواء تلك القليلة التي يملكها أو الكثيرة التي يستأجرها من ملاكها، أفضل الأراضي رعاية وأكثرها محصولاً. كانت الزراعة عشقه الأول، وربما الوحيد!... لا يفقه في شيء سوى في الفلاحة وما يتعلق بها... لم يكن يهتم بما يقوله أهالي القرية أو ما يشغلهم عادة من إشاعات أو مشاكل، فما دامت زراعته بخير، والسماء لم "تحبس المطر"

---

(22) الشريعة: التقاضي في المحاكم.

(23) رعوي: فلاح، وجمعها رعية.

-كما كان يقول- فإن كل شيء على ما يرام... ولهذا كان الجميع يتسابقون لاستئجاره كـ"شاقي"(24)، إذ كان عمله يساوي دون أية مبالغة عمل ثلاثة شقاة، فهو يجيد كل أنواع الأعمال، ويقوم بها على أكمل وجه، بل إن الكثيرين كانوا يؤمنون وبإخلاص بأنه من ذوي الأيادي الخضراء، التي لا تقع على شيء إلا أينع وأثمر... وكم كان ينتشي فخراً لسماع هذا الإطراء، ويغني بصوته الأجش مقولته المأثورة متباهياً:

- السائر طائر... والجالس حجر...!

كان "السُليّان" يطير في كل مكان، ولا يترك حجراً في طريقه إلا وتعامل معه. كان طيب القلب؛ لكنه ذو شخصية عنيدة، لا تنطلي عليه أي حيلة من أحد لخداعه أو استغلاله... يزعق دائماً بصوته الخشن المزعج إذا ما جادله أحدهم، ولا يتردد في العراك إذا ما تطلب الموقف ذلك، لهذا كان الجميع يخشاه، وإن لم يُظهر له البعض الاحترام الذي يستحقه. كان قوي البنية، مثله مثل الرعيل الأول من الرعية الأشداء. لا يعرف الكسل ولا المرض. وكالعادة لا يتذكر أحد من أطلق عليه هذا الاسم، ولا حتى ماذا يعني؛ لكن الجميع، بمن فيهم زوجته، لا ينادونه إلا به.

- صباح الخير يا سُليّان!
- أيوة!

---

(24) شاقي: مفرد شقاة: عمال بالأجر اليومي.

هكذا كان يرد على التحايا التي لا تعني له شيئاً...

- عيد مبارك يا سُليّان...
- أيوة!
- مِن العايدين الفايزين!
- أهلاً...!

بالنسبة له، كانت هذه العبارات مجرد وشوشات صوتية لا قيمة لها ما دامت لا تتعلق بالفلاحة من قريب أو بعيد...

37

عندما وصل السُليّان إلى طرف "الأجراف"، كان العمدة في انتظاره، وانتظار بقية الشقاة الذين استأجرهم للعمل في ذلك اليوم، منشرحاً ينفث دخان سيجارته بتلذذ ويرتشف كوباً من القهوة وهو يدندن بأغنيته المحببة:

مهما يلوعني الحنيبين   شاصبر واراعي لك سنيبين

لم يكن صوته سيئاً؛ لكنه كان يمد حرف الياء أكثر من اللازم، ولا يكترث كعادته بالإيقاع...

- أهلاً بالسُليّيين!

رحب به العمدة بصوت عال وبنفس إيقاع الأغنية؛ لكنه سرعان ما غيرَّ لكنته:

- قبح الله هذا الوجه! يعني ملعون اليوم الذي يبدأ برؤية وجهك الأحمر الذي تكاد تنفجر منه الدماء!...

قالها العمدة ضاحكاً وهو يقدم له كوباً من القهوة كثيرة السكر، ارتشفها "السُليّان" على عجل دون أن يتضايق من كلام العمدة؛ لكنه بعد برهة، وبدون سابق إنذار، زعق بصوته الأجش:

- عندك أجرة خمسة أيام يا عمدة... واليوم السادس... هه!

فِزِعَ العمدة، فانسكبت القهوة الساخنة على شفتيه؛ لكنه كظم غيظه وتصنع عدم الاهتمام قائلاً:

- ما بين الخيّرين حساب يا سُليّان!...

هزَّ "تُرمس" القهوة، وصبّ له كوباً جديداً، وأردف قائلاً:

- ثم إنها أربعة أيام... أنت حمار لا تجيد الحساب يا سُليّان... يعني هذا اليوم هو الخامس...

قالها العمدة مازحاً؛ إلا أن "السُليّان" استشاط غضباً، ورمى بمعوله من يده إلى الأرض بعنف بجانب كوب القهوة الذي ملأه العمدة للتو، وزعق في وجه العمدة:

- لا تمزح يا عمدة! عليك خمسة أيام... ولن أعمل اليوم إلا إذا سلمتني أجرتها، ذا الحين!

صادف في تلك اللحظة وصول "مرشد النجار" و"علي ناجي" وبقية الشقاة، وما إن سمعوا ما قاله "السُليّان" حتى بدؤوا بدورهم يطالبون العمدة بمستحقاتهم المتأخرة. حاول العمدة، وقد تغير مزاجه، أن يرضيهم بوعده لهم بتسليم أجرتهم اليوم عند انتهائهم من العمل؛ لكن "السُليّان" رفض ذلك، وبدأ صوته الأجش يرتفع أكثر وأكثر بسيل من الجُمل المتتابعة كعادته، وهو ما أغاظ العمدة كثيراً، فثارت ثائرته وصرخ مهدداً:

- لعنة الله عليك يا سُلّيان! يا ملعون! يعني قلت لكم سأدفع عندما تنتهون من العمل... يعني اليوم يا ملاعين!

* * *

لا أحد يعرف، على وجه الدقة، عدد الحقول الزراعية التي كان يفلحها "السُليّان" (فهو لم يكن يتردد في استئجار غالبية الأراضي التي يعرضها عليه ملاكها مهما كانت بعيدة عن القرية، ومهما كانت جودة تربتها) ولا كيف -وهو الأهم- كان بمقدوره فلاحتها بذلك الشكل المتقن، خاصة وأنه كان من النادر أن يستعين بشقاة آخرين! يقول الأهالي إنه مستأجر حتى لبعض الحقول البعيدة الرابضة تحت قمة جبل التعكر، وأنه يقوم بفلاحتها بنفسه، مؤكدين أنه، في الليالي المقمرة، لا يتردد في الذهاب إلى تلك الحقول للعمل... بعضهم يبالغ بالقول إنه لا ينام أبداً، وأنه قادر على معرفة مواقع عيون الماء القديمة المطمورة، لهذا كان يستأجر الأراضي القاحلة التي ما إن يبدأ بحفر مشاربها حتى تنفجر فيها تلك العيون وتتحول بعد سنوات قليلة إلى أخصب حقول المنطقة وأوفرها مردوداً.

لكن لماذا يستأجر "السُليّان" كل هذه الأراضي؟! هل من أجل المال؟! أم تراه عشقاً مبالغاً فيه للفلاحة؟! السُليّان لم ينجب، على الرغم من أن زوجته، التي يعيش معها في بيته الصغير المكتظ بالحيوانات، كان لها أربعة أبناء

من زوجها الأول. كانت احتياجاته بسيطة جداً، ولم يكن مبذراً بالتأكيد، فأين يذهب بأمواله التي يجنيها كل عام؟! كان هذا الأمر محط اهتمام الفضوليين من أبناء المنطقة؛ لكنه كان أيضاً الموضوع الأكثر تشويقاً لدى شباب القرية الذين كانوا عادة ما يمازحونه:

- يا سُليّان! لمن تجمع كل هذه الأموال؟! لماذا لا تتصَدّق ببعضها علينا... لربما تذكرناك بالخير عندما تموت؟!
- أيوة!
- لو كنت ممن يصلّون لطلبنا منك أن تتبرع ببعضها لتوسعة الجامع؛ لكن جبهتك لا تلامس الأرض إلا عند النوم...
- أيوة!
- لماذا لا تشتري بها أرضاً وتصبح شيخاً كبيراً يا سُليّان؟! هه؟! وسنصبح نحن مرافقوك! ما رأيك؟
- أيوة!

كان هذا هو رده المعتاد على ممازحاتهم المتطفلة، يقوله وقد ارتسمت ابتسامة مصطنعة غير مبالية على وجهه؛ ليس لأن في ذلك ما يمكن أن يعتبره تدخلاً في شؤونه الخاصة، بل ببساطة لأن هذه المواضيع برمتها لا تعني له شيئاً.

العمدة كان يقول إن "السُليّان" لم يكن بشراً وإنما ابن ملك الجن، تم طرده من مملكة الجان بعد أن أزعجهم بشخيره المتواصل، فعاقبوه بأن أرسلوه إلى القرية ليعمل بلا توقف ليل نهار... ثم يبتسم ويضيف:

- لقد أكمل فترة العقوبة منذ سنوات؛ لكن يبدو أن الملاعين يعني نسوا أمره!
- وماذا ينبغي أن نفعل الآن يا عمدة؟!

يتبرع أحدهم بالسؤال فينظر العمدة إلى "السُليّان" بخبث، ويفرك أصابعه النحيلة كمن يعد نقوداً، ثم يقول وقد تصنع الجدية:

- نطالبهم بالتعويض... فإن لم يدفعوا هم، دفعت أنت يا ملعون!

فما يكون من "السُليّان"، وسط ضحكات الجميع، إلا أن يرد ضاحكاً، وقد أعجبته الحكاية:

- أيوة!

38

بدأ الشقاة يتهيؤون لمباشرة العمل بعد أن رأوا العمدة وقد استشاط غضباً؛ لكن "السُليّان" ظل على موقفه، وهو ما أثار حفيظة العمدة الذي صرخ بانفعال:

- يعني هل تقول يا (صلوان) الجني إنني أكذب؟!

كان لتحريف اسم " السُليّان" أثره التصعيدي، فرد "السُليّان" باندفاع:

- أيوه... أنت كذاب يا عمدة... لن أعمل إلا بعد أن تدفع ما عليك...
- ماذا؟ أنا كذاب؟! أشهدوا يا ناس! يعني قال لي كذاب!... كذاب أبوك يا سُليّان!
- وأبوك!...

لم يتوقع العمدة هذا الرد العنيف؛ شعر بأنه أُهين أمام الآخرين، فنزع جنبيته وهمَّ بمهاجمة "السُليّان" الذي أمسك بالعمدة ورفعه إلى الأعلى بسهولة، وكاد أن يلقي به إلى الحقل السفلي قبل أن يتردد ويعيده بهدوء إلى الأرض مرة أخرى وقد سقطت عمامته...

ساد وقتٌ قصيرٌ من الصمت. الآخرون متصنمون، غير مصدقين، يحاولون فهم الأحداث السريعة التي مرت أمامهم...

العمدة ينظر بدهشة، وبهدوء أيضاً، نحو "السُليّان" الذي وقف للحظات بدون حراك قبل أن يلتقط معوله من الأرض ويغادر المكان وقد أدرك أنه أوقع نفسه في مشكلة كبيرة... نعم، مشكلة كبيرة... لم يكن يعرف إلى أين يذهب؛ ذلك أنه في كل مرة كان يتعارك فيها مع أحد يلجأ إلى العمدة، الذي عادة ما ينصفه ويقف إلى جانبه؛ لكن لمن يذهب الآن وقد أصبح العمدة غريمه؟! الشيخ العارض مسافر كعادته... فكر بآخرين؛ لكن سرعان ما استثناهم... سيفتكون به دون شك... وبينما هو يفكر حائراً كانت قدماه تسوقانه إلى بيت العمة "كُرامة".

39

ظهيرة ذلك اليوم، كان الأهالي قد تجمعوا في ساحة القرية، التي انقلب حالها رأساً على عقب... أولاد العمدة ثائرون يريدون أن يفتكوا بـ"السُليّان"، الذي اختفى... والعمدة في بيته لا يتوقف عن اللعن والسباب، مخصصاً معظم ذلك لـ"الشرجبي"، وكيل الشيخ العارض، الذي رفض أن يذهب إلى "النجد الأحمر" للاتصال بالشيخ وإبلاغه بهذه المشكلة، متعللاً بمرضه:

- مريض! هه!... يعني منذ متى؟!

قالها العمدة بتهكم بينما كان ما يزال يدور حول نفسه وقد شبك ذراعيه خلف ظهره، مضيفاً:

- الشرجبي منذ أن خلقه الله لا يمرض، ولا يموت!... يعني يتعذر هذا الملعون!

قالها وهو يشتعل غضباً دون أن يجرؤ أحد على مراجعته، ثم سأل أحد أبنائه:

- وهل عاد "كريم" الملعون بعد؟!
- كلا... لكن لا بد أن يأتي إلى هنا أول ما يعود!...

قبيل العصر عاد "كريم"، بعد أن كان قد خضع لإلحاح العمدة وذهب للاتصال بالشيخ العارض. اخترق مسرعاً ما تبقى من الحشد المبعثر الذي كان قد تجمع في ساحة القرية، ولم يعرج على دار العمدة كما كان متوقعاً، بل توجه مباشرة إلى بيت العمة "كُرامة"، ثم خرج مع "السُليّان" إلى دار العمدة.

في مقيل العمدة أخبر "كريم" الجميع أن الشيخ بعد أن استمع إلى ملابسات النزاع، حكَمَ بحل القضية ودياً. وقبل أن يستمر في الحديث كان بعض الحاضرين قد أبدى اعتراضه على الحكم كما هي العادة، وتعالت بعض الاحتجاجات الضرورية كنوع من المجاملة للعمدة، الذي بدوره أخذ نفساً طويلاً من "المداعة" قبل أن يُسكت الحاضرين، مشيراً إلى "كريم" أن يكمل الحديث، في إشارة تدل على تفهمه واحترامه للحُكم، حتى قبل سماعه. وهكذا، لم تمر أكثر من ساعة إلا وقد انتهت القضية تماماً، فقد قضى الحُكم بأن رفع العمدة الجنبية في وجه "السُليّان" (وهذا خطأ وعار جسيم) مقابل ما تلفظ به "السُليَان" على العمدة (وهو خطأ وعيب فادح)، إلى جانب إعفاء العمدة من دفع ما عليه من أجرة لـ"السُليّان" واعتبارها "معوان"(25).

---

(25) المعوان: المعونة، عمل تطوعي بدون أجر.

كان "السُليّان"، بعد أن انزاح همّ كبير عن عاتقه، يضحك ببلاهة مصطنعة كنوع من قبوله بالحُكم وتشجيع الآخرين لدعمه، خاصة أولئك الذين كانوا -مماحكة له- قد اعترضوا على إغفال الحكم لحادثة الاعتداء على العمدة؛ الذي بدوره كان حريصاً على إسكاتهم، ليس لأنه كان يعرف نواياهم السيئة في تأجيج المشاكل وحسب، بل ولأنه أيضاً لم يكن يريد أن يجعل منها قضية تلوكها ألسن ممازحيه الملاعين الذين تغامز بعضهم للتو بالقول إن ذلك الشجار كان مفتعلاً من قبل العمدة كي لا يدفع ما عليه من أجرة لـ"السُليّان".

الحق أن العمدة كعادته كان قد نسي الأمر برمته في ذلك الوقت؛ لكنه كان ما يزال مقطباً حاجبيه متصنعاً تنازله عن حقوقه ومسامحته لـ"السُليّان"، الذي قام بدوره بتقبيل رأس العمدة كآخر مشهد مفترض لأحداث ذلك اليوم، لولا أن العمدة بعد دقائق، وقد بدأ يستمتع بآخر أنفاس "المداعة"، لاحظ فجأة وجود "الشرجبي" بجانب "كريم"، فثارت ثائرته وزعق به:

- وماذا جاء بك إلى هنا؟! يعني لم تكن مريضاً كما قيل يا ملعون؟!

حاول "كريم" أن يتدخل؛ لكن العمدة قاطعه، مستمراً في زعيقه:

- قالوا إن الدورة الشهرية أتعبتك هذه المرة!... لكنني أكدت لهم أنها قد انقطعت عنك منذ فترة طويلة...

وهكذا، ودون أن يدري، أوقع العمدة نفسه في مشكلة جديدة ذلك اليوم؛ ذلك أن "الشرجبي"، وهو العارف ببواطن الأمور المُلمّ بالعادات والتقاليد، لم يكن ليتقبل الأمر بهذه الطريقة، وما إن سمع كلام العمدة حتى أخرج جنبيته من غمدها، بحزم وهدوء، ووضعها أمام "كريم"، قائلاً بصوت مرتفع مخاطباً الحاضرين:

- أنتم شهود!... قلّدكم الله(26)!... قد سمعتم ما قاله العمدة، هه؟! وهذه جنبيتي... عَدَال(27)...!

ثم قام من مجلسه وغادر بسرعة تحت دهشة العمدة الذي لم يكن يتوقع أن تأخذ الأمور هذا المنحى الجدي، متمتماً في نفسه كمن اكتشف متأخراً كميناً أوقع نفسه فيه:

- كعادتك تستغل كل شيء لصالحك... هه!... يعني أوقعت بي وفعلتَها يا ملعون...!

---

(26) في العرف القبلي تعني: "أستحلفكم الله بأن تحكموا وتشهدوا بالحق".

(27) العدال: وضع شيء ذي قيمة محل الارتهان عند الحاكم حتى صدور الحكم في القضية المختلف عليها كضمانة للالتزام بالحكم.

40

كما جرت العادة في قريتنا، لم يكن أحد يعرف من أطلق على "الشرجبي" هذا اللقب غير المتداول في المنطقة؛ لكنه أصبح لا يُعرف إلا به، خاصة بعد أن أصبح منذ أمد بعيد وكيلاً للشيخ صالح العارض، ومن بعده أخيه راجح. كان "الشرجبي" أرملاً حاد الطباع، قوي البنية، مكتمل الصحة، ظريف المعشر، بعينين زرقاوين وشعر شبه أشقر، ذكي، وعلى النقيض من أهالي قريتنا، كان ذا ذاكرة حديدية تثير الإعجاب وتتناسب تماماً مع طبيعة عمله. يعرف المواقيت الزراعية بدقة، ويتذكر أسماء جميع أهالي المنطقة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، بالإضافة إلى أسماء القرى البعيدة، والمدرجات الزراعية المتناثرة، والشعاب والآكام والمنحدرات والطرق... بعبارة أخرى كان يعرف اسم كل ما له اسم، ويدوّن كل ذلك في قاعدة بيانات عقله بدقة عالية؛ حتى أنه استطاع بالممارسة -على الرغم من كونه أمياً- قراءة الأرقام والأسماء تمييزاً.

عندما كان الشيخ العارض يفتح السجلات الخاصة بـ"غلول" أراضيه التي يفلحها شركاؤه في الأرض، مراجعاً

حساباته وديونه لدى الآخرين، كان "الشرجبي" يهز رأسه مؤكداً صحة بعضها، ومصححاً بعضها الآخر، ولهذا كان عادة ما يُستدعى كشاهد في أي خلاف يكون حاضراً فيه، فقد كان قادراً على سرد تفاصيل الأحداث والحوارات بدقة كما لو كانت ما تزال تحدث أمامه.

لكن، وكما هو متوقع، كانت تلك هي حدود معارفه القصوى، فلم يكن يهتم بأي شيء لا علاقة له بالأرض أو الأهالي ومنازعاتهم، أو بأعمال الشيخ العارض في المنطقة؛ إلا أن نجاحه في عمله وذكاءه الحاد هذا جعل الناس يخشونه أكثر من خشيتهم الشيخ العارض، فكانوا يتعاملون معه بحذر وخوف، فقد كان لا يتردد في استخدام مختلف الحيل وقلب الحقائق لصالحه متى ما استدعى الأمر ذلك. ومع ذلك، كانت ثقة الشيخ العارض به بلا حدود، وكان يعتمد عليه تماماً في إدارة شؤونه المختلفة في المنطقة، خاصة في الآونة الأخيرة بعد أن اعتلت صحته كثيراً واضطر أن يعيش معظم أيامه في العاصمة؛ لكن دون أن يتردد بين الحين والآخر في لجم طموحات وكيله في التسلط، أو في نهره بحزم عند مضايقة الآخرين، خاصة أقربائه ومن هم في محيطه. بعبارة أخرى، أولئك الذين كان "الشرجبي" يعدهم منافسين له ولحظوته.

كان الأهالي ينسجون الأساطير حول قدراته الخارقة، بما في ذلك تحديه الموت، الذي كان ينجو منه دائماً، مدللين على ذلك بعددٍ من الحكايات الخيالية، وخروجه سليماً معافى من مشاجرات دامية وخمس حوادث سيارات جسيمة زهقت فيها أرواح كثيرة. كان العمدة من القلائل الذين كانت لهم علاقة متوازنة معه، بحكم قربهما من الشيخ العارض، محافظاً على مسافة ملائمة منه، فلا هو بالصديق القريب ولا بالعدو البعيد، طبعاً دون أن يتردد في إبداء رأيه الصريح:

- الشرجبي تُركي ملعون... خلقه الله ملعوناً، وسوف يتوفاه، يعني إن استطاع، ملعوناً أيضاً!...
- لا يجوز يا عمدة!...
- صدقوني!... الشرجبي لا يمرض ولا يموت...!
- استغفر الله يا عمدة...!
- لو كنتُ أنا الذي خلقته لأمتّه على الفور... صدقوني!... لكنها إرادة الله... يعني...!
- يا عمدة! قلنا لك استغفر الله!

فيرد العمدة بجملته المعتادة وقد أغاضه إصرار المقاطعة وطلب الاستغفار:

- استغفر الله أنت يا ملعون!... لأنك... يعني مليء بالذنوب!...

ثم يستدرك موجهاً حديثه للجميع:

- ثم يا ملاعين... لماذا دائماً تطلبون من الله أن يغفر لكم؟! هه؟!... لماذا؟!... لأنكم يعني منافقون... يعني المفترض أن تطلبوا منه أن يمنعكم من اقتراف الذنوب، لا أن يغفرها لكم كلما ارتكبتموها... صدقوني!... لو كنتم أحراراً لرضيتم أن يحيق بكم العذاب بسبب ذنوبكم؛ لكنكم منافقون... خنازير... ملاعين...!
- يا عمدة... هذا ما أمرنا الله به... "استغفروني أغفر لكم"... هه!...
- إخرس يا منافق!... يا خنزير!... يا ملعون!...

* * *

لم تمض أيام كثيرة بعد وفاة الشيخ العارض حتى اختفى "الشرجبي" ولم يُعرف عنه شيء... اختفى في صباح يومٍ ضبابي كأنه لم يكن... كان في اليوم السابق قد وضع بعض الأوراق والمفاتيح في صرة، وسلمها لـ"أمي حليمة"، التي لم تعر الموضوع كبير اهتمام، لانشغالها بحزنها الكبير على زوجها: آخر فرد من سلالة آل العارض. كالعادة، تبرع الكثيرون بنسج الحكايات المختلفة عن رحيله، فمنهم من قال إنه هاجر إلى "أديس أبابا"، وفتح هناك بقالة كبيرة... آخرون قالوا إنه هاجر إلى السعودية وقُتل على أيدي عصابة على الحدود بعد أن أخذت كل ما كان بحوزته... العمدة، وعلى غير المتوقع، لم يشارك في هذا الشأن بأية حكاية، وكان يكتفي بترديد مقولته المعروفة:

- الشرجبي ملعون... لا يمرض ولا يموت...

"ليس هذا مرضاً أصبت به كما يظن البعض، بل هو إكسيرٌ نادرٌ للسعادة... وأنا أحبه... أحبه كثيراً... كم أنا محظوظ! فقد وجدته من غير عناء، بينما يقضي الآخرون عمراً كاملاً بحثاً عنه دون جدوى...".

عزيز

"كنتُ بعيداً... بعيداً عن كل شيء... في مكان مظلم ومخيف ما يزال يعيش بداخلي...".

كريم

الفصل الرابع

41

لم يكن "عزيز" يعرف أنه قد بلغ السابعة عشرة من العمر في ذلك العام الذي وُجدَ فيه "كريم" جثة هامدة في منزله، فهذا الأمر كان واحداً من أشياء كثيرة لا يعرفها، ولا تعني له شيئاً... الأهالي لم يكونوا يعرفون هذا أيضاً. كانوا فقط قد لاحظوا أنه لم يعد يكبر منذ سنوات.

كان ذقنه صغيراً مثل حجم رأسه المسطح من الخلف، ولسانه متضخمه، ولا علامات لأي شارب على وجهه المستدير. قصير القامة، له ميلان عرضي في شق العين، وتسطح في جسر الأنف، وقصر في الرقبة، وضعف في تناغم العضلات، وعيوب بيولوجية في تكوين القلب، وشق وحيد في أصبع القدم الخامس، كما كان لا يملك سوى طية واحدة في راحة كفه...

هذه التفاصيل لم يكن "عزيز" يعرفها أيضاً، مثله مثل الكثيرين من أبناء القرية... بعض طلبة المدارس فقط كانوا يعرفون أنه وُلِدَ مصاباً بـ"متلازمة داون"، أو كما يطلق عليها منهجهم الدراسي المتقادم "البلاهة المنغولية"... نعم، كان أبلهاً في نظر

الجميع، بمن في ذلك أهله؛ لكنه لم يكن يشاركهم هذا الرأي، فقد كان يشعر أنه أكثرهم سعادة... يمشي حيثما شاء بخطى شجاعة... يحرك رأسه مبتسماً بكبرياء لطيف...

كم كان ينتشي وهو يقوم بأعمال وتصرفات يجدها الآخرون في منتهى الصعوبة! يقوم بها بجرأة مريحة وبلا تردد، كأن يخلع كل ملابسه النظيفة وهو يغتسل في مياه "الجوهرة" الباردة، أمام خجل الآخرين، خاصة النسوة، اللواتي كُنَّ قد تعودن على طقوس اغتساله الذي كان يقوم به مرات عديدة في اليوم الواحد، وفي مختلف الظروف الجوية، قبل أن يجفف نفسه بملابسه التي كان حريصاً على نظافتها، ويمتد على ظهره فوق إحدى الصخور الدافئة، متحدثاً للسحب البيضاء الشاردة أمام عينيه، أو للنجوم المتلألئة في السماء، يتحدث إليها بمرح، ماداً لها يده كمن يحاول التقاطها، بينما يسرّح بأصابع يده الأخرى شعره الأنيق باهتمام... كم كان يسعده أيضاً مشهد المحيطين به وهم ينتفضون من حوله مطاردين قصاصات النقود التي كان يتعمد تمزيقها أمامهم ورميها للرياح! كان يضحك بحبور، ضحكاته القصيرة المتقطعة، قافزاً في الهواء، مصفقاً بوتيرة غير منتظمة، وقد ارتسمت ابتسامة مترعة بالمرح على وجهه الأسمر المستدير، صائحاً بمرح:

- نيووك! نيووك!

* * *

"لماذا ينظرون إليّ هكذا؟ ما الذي يدور في أذهانهم؟! لستُ مختلفاً كثيراً كما يظنون!... كل ما في الأمر أن خلايا جسدي احتوت على صور أكثر لأسلافي في لحظة التكوين الأولى قبل أن أنمو وأسعد بالعوم اللذيذ في بطن أمي... ليس هذا مرضاً أصبت به كما يظن البعض، بل هو إكسيرٌ نادرٌ للسعادة... وأنا أحبه... أحبه كثيراً... كم أنا محظوظ! فقد وجدته من غير عناء، بينما يقضي الآخرون عمراً كاملاً بحثاً عنه دون جدوى!...".

هل يمكن لـ"عزيز" حقاً أن يفكر بهذه الطريقة؟! هل يعرف شيئاً عن الكروموسوم 21 الذي تكرر في خلايا جسده ثلاث مرات وجعله أبلهاً في عيون الناس؟! من يدري؟! ربما لو كان مهتماً بالأمر لحدّث نفسه هكذا وهو يدندن فرحاً متقافزاً بين أغصان القات المرتفعة التي يقطفها بخبرة عالية لا يعرف من أين اكتسبها، ولا يعرف أيضاً لماذا يتضايق بعض الناس من دخوله حقولهم وأخذ حاجته من أوراق القات اللذيذة! ألم يقوموا بتربيتها لكي يقطفها ويستحسن مذاقها في مقايلهم الصاخبة التي لا يتخلف عنها أبداً؟! ما بالهم في بعض الأحيان يكشّرون عن أنيابهم على الرغم من أنهم يستطيعون مثله قطف أوراق القات وتعاطيه، بل وبكميات أكبر تزيد في بعض الأحيان عن حاجتهم؟!... هو لا يمنعهم، ولا

يكشّر في وجوههم أبداً... لطالما لاحظ باستغراب تصرفاتهم غير المنطقية تلك، بل وغيرها من تصرفات تبدو له حمقاء وغير ضرورية. تصرفات لم يكن يفهم لماذا يكبلون بها حريتهم! ولماذا يجعلون من حياتهم سجناً ضيقاً، جدرانه أوهامٌ صلبة صعبة الاختراق، ثم لا يكفون عن التبرم منها، ويحاولون جاهدين الهروب من سجنهم الذي وضعوا أنفسهم فيه! ربما كانوا مصابين بمرض ما... من يدري؟! ربما هم مصابون بمرض سببه افتقار خلاياهم لإكسير السعادة الذي لدى "عزيز"!...

في أيامه الأخيرة، لم يكن عالم النبات والمستشرق السويدي "بيتر فورسكال" يعرف، وهو يتفحص تلك النبتة المنبهة، الدائمة الخضرة، أنها ستحمل بعد سنوات عديدة اسمه، وستُعرف علمياً باسم "كاثا أيديولس فور سكالس"، ولم يكن يعرف أيضاً، وهو يضع عينات منها في حقيبته، أنها بعد أكثر من مائتي عام ستصبح النبتة الأكثر تداولاً في اليمن، ومصدراً رئيسياً لمرض أهلها الذين يستخدمون لنموها أكثر السموم فتكاً، ويعرفونها باسم "القات".

قبل عامين لم يكن "فورسكال" يعرف شيئاً عن اليمن سوى اسمها الروماني القديم والساحر: "العربية السعيدة"،

عندما أبلغوه ببرنامج البعثة العلمية التي وافق على المشاركة فيها تحت إلحاح البروفسور "لينوس" ومعارضة والده.

كان صباح الخامس من يوليو 1763 في "النقيلين" غائماً، والسحب تنذر بأمطارها الموسمية... استيقظ "فورسكال" مبكراً، وقد شعر بحيوية وانتعاش افتقدهما منذ أشهر عديدة، وغادر "سمسرة المحرس"(28)، الرابضة بقاياها حتى اليوم، دون أن يخبر زملاءه أعضاء البعثة الذين كانوا ما يزالون يغطون في نوم عميق، بعد أن أنهكتهم بالأمس المسافة الطويلة التي قطعوها من مدينة تعز في طريقهم الصاعد نحو محطتهم الأخيرة: صنعاء. اكتفى فقط بكتابة ملاحظة صغيرة يخبرهم فيها بأنه خرج للتجول، وأنه لن يتأخر...

لم تكن له وجهة معينة؛ لكنه قرر أن يتوجه شمالاً، حاملاً معه حقيبته الجلدية التي يحتفظ فيها بعينات من النبات والحشرات التي داوم على جمعها منذ أن كانوا في القسطنطينية قبل عامين، عندما لبسوا الملابس العربية لأول مرة، وسافروا على ظهر السفينة التركية المكتظة بفتيات فائقات الجمال سيتم بيعهن كجواري في أسواق مصر. لم يكن مضطراً لأن يحمل معه قربة الماء؛ فقد كان الماء

(28) السمسرة: خان لإيواء المسافرين.

متوفراً بكثرة منذ مغادرتهم تعز، وصعودهم مرتفعات الجبال الخضراء... استنشق بعمق النسمات الباردة التي كانت تداعب وجهه الذي شابته سُمرة مرجانية بعد أن لوحته الشمس طويلاً، وشعر بارتياح بعد أن ضاق بحرارة الجو والرطوبة التي التهمت جسده المتعب خلال الشهور الماضية...

42

كان الجميع، بلا استثناء، يحبون "عزيز" كتعويذة يحرصون عليها، ويسمحون له بما لا يسمحون لأولادهم، يمازحونه ويعطفون عليه، ولا يترددون في إعطائه ما يريد... وإذا ما اعترض أحدهم أجابه الآخر بما أصبح متعارفاً عليه:

- يحق لعزيز ما لا يحق لغيره...!

حتى بواب "مدرسة الثورة" كان لا بد أن يرضخ لركلات قدميه على باب المدرسة الحديدي، فيسمح له بالدخول أو الخروج متى ما يشاء... بالتأكيد لم يكن "عزيز" يحضر لغرض الدراسة، بل لكي يهيم في ساحة المدرسة، منادياً أحد الطلبة أو ملتقطاً بعض الأقلام التي سقطت هنا أو هناك، ليسلمها للإدارة مقابل قارورة الـ"بيبسي" التي كان يستلمها من المقصف كل يوم، ويشربها دفعة واحدة، بعد أن يكون قد تبادل بمرح إشارات بذيئة مع صاحب المقصف أو أحد المدرسين ضاحكاً في وجوههم:

- نيووك...!

كانت هذه هي كلمته المفضلة، والدائمة، يقولها بلغته الخاصة المحورة التي أصبح الجميع يعرفونها، بل ويستخدمونها فيما بينهم في بعض الأحيان من باب التندر. لم يكن أهالي القرية يتبادلون معه الحديث بقدر ما كانوا يحاولون استنطاقه بعض الجمل التي كان يقولها باختصار شديد، بعد أن يكون قد حذف كل ما هو زائد فيها من حروف العلة والعطف والحروف صعبة النطق... كان قاموسه اللغوي لا يزيد كثيراً عن عشر كلمات وبعض العبارات في المرة الواحدة، يتداولها لفترة من الزمن ثم ما يلبث أن يبدل معظمها بكلمات وعبارات أخرى.

في الطريق بين حقول الذرة المدرّجة تذكر "فورسكال" كيف قادته الأقدار إلى هذه البلاد البعيدة... سرح بصره نحو السحب المثقلة بالمطر، وعاودته ذكريات حياته القصيرة الغاصة بالأحداث... تذكر معركته قبل أربع سنوات مع إدارة جامعة "ابسلا"، وأعضاء مجلس العدلية، الذين جُنَّ جنونهم عندما علموا أنه قام بطباعة كتابه، رغم اعتراضهم عليه، وتوزيع نُسخه الخمسمائة على تلامذته في الجامعة. أصدر المجلس، وبسرعة، حكماً قضائياً بمنع الكتاب، وأمر مدير الجامعة بجمع كل النسخ التي طبعت؛ لكنهم لم يستطيعوا جمع سوى تسع وسبعين نسخة، تم إحراقها فوراً. كان منظر إحراق الكتب قد دمجه بانطباعات متناقضة امتزجت فيها

مشاعر الحزن والهزيمة مع مشاعر الفخر والانتصار... حينها أدرك، وبزهو لا حدود له، أنه لم يعد ذلك الشاب الأكاديمي الطموح ذا الأفكار الجريئة وحسب، بل إنه في الطريق لأن يصبح واحداً من أولئك المفكرين الكبار الذين أُحرقت كتبهم عبر التاريخ خشية ما فيها من أفكار جديدة... التاريخ الذي أثبت لنا دائماً كيف رضخت الإنسانية في نهاية الأمر لهذه الأفكار بعد أن نجحت في تغيير مسارات الحياة والسلوك البشري، وما تزال...

كان كتابه، الذي صدر في نهاية خريف 1759 بعنوان "أفكار حول الحرية المدنية"(29)، يحتوي على أربع وعشرين مقالة تضمنت نقداً صريحاً للوجهاء من أصحاب المناصب والأموال "الذين كبرت سطوتهم على البلاد، واستغلوا نفوذهم في سبيل الحصول على الامتيازات على حساب الشعب"، مؤكداً فيها أن "أعز وأغلى ما يملكه الإنسان بعد حياته هي حريته، وأن الخطر الوحيد الذي يهدد هذه الحرية هو سيطرة وجبروت هؤلاء"، داعياً بوضوح إلى حرية الرأي والصحافة "التي من خلالها يستطيع الشعب أن يعبر عن كل ما يصيبه من ظلم وجور".

---

(29) Tankar om borgerliga friheten.

وعلى الرغم من أن الملكية المطلقة كانت قد انتهت في السويد آنذاك، إلا أن آراء "فورسكال" عن الحريات المدنية، ومطالبته بحق العامة في التعبير عن آرائهم بحرية، ومشاركتهم للسلطة والثروة، أحدثت الكثير من الجدل، فتم إخضاعه لتحقيق مشدّد. لم يخضع "فورسكال" لتهديد أعضاء مجلس العدلية، فقام بمراسلة الملك "أدولف فريدريك" مباشرة، شاكياً ما حدث من أمر الكتاب وحرقه. يتذكر "فورسكال" بألم بالغ الرد غير المتوقع من الملك الذي أصدر بحقه توبيخاً شديد اللهجة، الأمر الذي لم يترك له من خيار سوى الرضوخ والاستسلام، والهروب المؤقت، عبر قبوله العرض المقدم له للالتحاق بهذه البعثة. ربما كان ألمه حينها سيتحول إلى فرحة عظيمة لو أنه عرف أن البرلمان السويدي سيستجيب لمطالبه، وسيصدر بعد ثلاث سنوات فقط قراراً برفع الرقابة عن الصحافة نهائياً، وأن التاريخ المعاصر سيتذكره كأحد رواد الحرية في السويد، بل وفي أوروبا. لكنه لم يكن يعرف ذلك، ولا أنه بعد سبعة أيام فقط سيلفظ أنفاسه الأخيرة في مدينة صغيرة مقفرة تسمى "يريم".

43

لم تكن أيام "عزيز" تخلو مما يكدر مزاجه، فالمعاملة الخاصة التي كان يتمتع بها من قبل الجميع لم تكن تجعل بعضهم يتردد في نهره إذا ما تطلب الأمر، أو تشفع له عند إخوته الذين كانوا في بعض الأحيان يضربونه، لكن دون قسوة. شباب القرية، ذكوراً وإناثاً، لم يكونوا يترددون أيضاً، كنوع من التسلية، في خداعه بين الحين والآخر، أو في استخدامه لقول أشياء غير لائقة، أو لنقل الرسائل السرية فيما بينهم. غير أن أكثرهم خبثاً كانوا قد فشلوا في جره إلى عادة تدخين السجائر أو "المداعة"، بعد أن نجحوا في جعله مدمناً على مضغ أوراق القات، وإطلاق اللعنات والسباب، الذي لم يكن يُغضب أحداً بقدر ما كان يبعث جواً من المرح، تماماً كذلك الذي كانت تبعثه لعنات وممازحات أبيه:

– استعد يا عزيز!... يعني سأزوجك هذا الشهر يا ملعون!...

هكذا كان العمدة يمازح أصغر أبنائه، وأحبهم إلى قلبه، وهو يشير إلى تحت سرته بتخابث، فما يكون من "عزيز" إلا أن يشيح بوجهه، وقد تضايق قبل أن يرفع كفه وهو يسب قائلاً:

- تيز أومك أومدة...!

يمسك العمدة ذقنه بيده ويهزها دلالة على الاستنكار ويقول متصنعاً:

- أمي!؟ الله المستعان يا عزيز...!
- مستآن نيووك أومدة! نيووك!

فيرد العمدة ضاحكاً:

- ها ها... وأبوووك يا ملعون!... وأبوك!

* * *

كان "فورسكال" قد ابتعد عن "سمسرة المحرس" أكثر مما كان في نيته، حتى أنه وجد نفسه، بعد ساعات، قريباً من قمة جبل التعكر، عندما طافت في ذهنه ذكرياته المؤلمة مرة أخرى... حينها تذكر كيف كان يشاهد، قبل أسابيع، بكثير من الفزع والحسرة، عيّنات الأسماك والهلاميات التي جمعها من البحر الأحمر، وهي تتلف برعونة من قبل موظفي الجمرك في ميناء "المخاء"، على الرغم من توسلاته الخانعة، وكيف تعقدت الأمور كثيراً في تعز مع حاكمها الجشع الذي حاول ابتزازهم بشتى الطرق، وذلك القاضي الذي تعاطف معهم وأجبر الحاكم على أن يتركهم وشأنهم... حزَّ في نفسه أنه لم يسجل اسم ذلك القاضي في دفتر يومياته، فقد كان من القلائل الذين وجد عندهم إدراكاً وتقديراً لمهمة البعثة... تذكر

أيضاً مشاعر الارتياح التي اعترته بعد وفاة "فون هافن"، عالم اللغة واللاهوت الدنماركي، وزميله المشاكس في البعثة... تلك المشاعر الغريبة التي ندم عليها كثيراً، واستغرب وهو يلوم نفسه كيف لم يتعاطف مع زميله الذي مات غريباً، ودُفن تحت رمال المقبرة الأوروبية خارج مدينة "المخاء"! وكيف أنه اعتقد مخطئاً أنه بموت "فون هافن" ستصبح رحلتهم أكثر سهولة، الأمر الذي أثبتت الأسابيع الفائتة عكسه تماماً!

حاول "فورسكال" طرد هذه الأفكار السوداء من ذهنه. كان نسيم الجبل مترعاً بروائح النباتات والزهور وأوراق عيدان الذرة. استأنف رحلته وتنفس الصعداء عندما تذكر موطنه، وما ينتظره من مجد ومكانة علمية هناك كتعويض معنوي له أمام من حاربوه... إلى جانب المعاش الشهري الكبير الذي وافقت الحكومة على دفعه له مدى الحياة أثناء تفاوضه للانضمام إلى البعثة قبل أكثر من أربعة أعوام. دبَّ النشاط مرة أخرى في روحه، وغذّ السير نحو قمة الجبل مستأنفاً عمله، على أمل أن يجد فصائل أخرى من نبتة البلسم التي كان قد اكتشفها مصادفة قبل شهرين أثناء رحلته القصيرة التي صحبه فيها عالم الفلك -أمين صندوق البعثة، "كرستيان نيبور"، وهي الرحلة التي غادرا فيها "بيت الفقيه"، سالكين طرقاً وعرة ومهجورة، مخترقين خلالها الجهة الجنوبية من جبال "وصاب"، ليصلا إلى "العدين"،

و"جبلة"، هذه المدينة التاريخية المدهشة التي لا بد أن تكون، إذا صحّت حساباته الجغرافية، غير بعيدة عن الجهة الأخرى من قمة هذا الجبل الكبير...

﴿44﴾

تأخر "فورسكال" في العودة كثيراً... كان القلق قد استولى على زملائه الذين قرروا قضاء ذلك اليوم للراحة وعدم القيام بأية أعمال... قبيل غروب الشمس عاد وقد امتلأت حقيبته الجلدية ببعض النباتات والحشرات؛ لكنه كان منهكاً شارد الذهن. وبعد أن تبادل حديثاً مقتضباً مع زملائه، انزوى في ركن غرفته، التي كان يشاطره فيها "نيبور"، وشرع يفرغ محتويات حقيبته، مصنفاً العيّنات التي جمعها في أحد دفاتره. عندما أكمل مهمته هذه، بدأ يقرأ ملاحظاته التي كتبها خلال تجواله في ذلك النهار، وطلب من "نيبور" أن يؤكد صحة إحداثيات المنطقة و"السمسرة". بعد ساعة خرج إلى باحة "السمسرة" وظل لساعات ينظر عبر التلسكوب إلى النجوم التي كانت تتوارى خلف الغيوم المتفرقة، مدوناً بعض الملاحظات والخواطر التي أرقته كثيراً.

في صباح اليوم التالي، السادس من يوليو 1763، شعر "فورسكال" بفتور شديد، ووجد صعوبة في النهوض من النوم. أبدى طبيب البعثة، "كارل كرامر"، قلقه بعد أن قام بتشخيص حالته واعتقاده بأنه مصاب بالملاريا. بعد

مداولات مع بقية أعضاء البعثة، قرروا، تحت إلحاح زميلهم المريض، مغادرة "السمسرة" ومواصلة مسيرتهم نحو "إب"، بعد أن خصصوا حماراً لـ"فورسكال" تمدد جسده المنهك على ظهره، محاولاً دون جدوى أن يلحق بالجمال التي كانت تحمل بقية أعضاء البعثة ومعداتهم... حاول أن يقرأ ملاحظاته التي كتبها في الليلة السابقة؛ لكنه لم يستطع. كان مشغول الذهن، وهواجس كثيرة استحوذت على فكره لم يكن قد توصل بعد إلى رأي واضح بشأنها، لهذا تردد أن يبوح بها إلى زملائه، وآثر الصمت.

خلال الرحلة اشتدت آلام "فورسكال" كثيراً، وأصبح وجهه مزرقاً، وقيؤه يسيل على جوانب الحمار، مما اضطر البعثة إلى التوقف في قرية صغيرة، على أمل أن يسترد عافيته، قبل أن يواصلوا رحلتهم عبر منحدرات جبال "سمارة" الشاهقة.

في صباح اليوم التالي، وبعد ليلة عصيبة، أدركوا أنه لن يكون بمقدوره ركوب الحمار لوحده، فاستأجروا، بواسطة الجمّالين، بعض العمال من الأهالي لحمله؛ لكن هؤلاء، وبعد انتظار طويل، لم يأتوا. لم يكن مع أفراد البعثة الكثير من الوقت، وكانوا يخشون أن يهبط عليهم الليل وهم في عوارض الجبال الشاهقة، لذلك لم يجدوا من حل سوى ربط "فورسكال" على ظهر أحد الجمال، لتستأنف القافلة طريقها

لتصل قبيل المغرب، بعد عناء شديد، مدينة "يريم"، المدينة التي لم تستقبلهم بالترحاب، ولم يصمد فيها "فورسكال" طويلاً، فمات بعد أربعة أيام دون أن يكمل عامه الثالث والثلاثين، ودون أن يعرف أن زملاءه لن يكون بإمكانهم تشييعه كما يجب، ولا أن جسده لن يحظى حتى بقبرٍ محترم. وُضعت جثة "فورسكال" في تابوت صُنع على عجل، ودُفنَ في حفرة في مكان قصي خارج المدينة، سينبشها اللصوص بعد يومين، ويكسرون التابوت، بحثاً عن كنز افترضوا وجوده فيه، ملقين بجثته في العراء، قبل أن يتدخل أعضاء البعثة لدى حاكم المدينة الذي أمر أحد الأهالي اليهود بإعادة الجثة إلى الحفرة ودفنها مقابل حصوله على التابوت الخشبي المكسور...

﴿45﴾

يتنهد "مصلح سعيد"، أحد أصدقاء "كريم"، متذكراً:

- في طفولتنا كنا نهرب باستمرار من "المعلامة" ومن عصا سيدنا الفقيه(30)، وكان كريم يهرب معنا رغم أنها كانت نادراً ما تطاله، فقد كان أكثرنا حفظاً للقرآن آنذاك، وكان يجيد القراءة والكتابة. حينها كان ما يزال يعيش في دار البخور، قبل أن ينتقل إلى منزلهم مع عمته كُرامة. على العموم كنا عادة ما نهرب ونتوجه إلى سد القرية، نسبح فيه بحرية، مستغلين انشغال الناس بأعمالهم، وعدم وجود شباب القرية الأكبر سناً في ذلك الوقت الباكر، الذين كانوا يعذبوننا بمزاحهم الجلف إذا ما سبحنا معاً.

كان "مصلح سعيد" قد عاد نهائياً من غربته الطويلة في السعودية مع مئات الآلاف من المغتربين الذين عادوا أيام ما عُرف بأزمة الخليج الثانية التي بدأت باحتلال العراق

(30) المعلامة: الكُتّاب. وسيدنا الفقيه: فقيه القرية.

للكويت. غادر دون أن تقنعه محاولات رؤسائه في العمل بالبقاء ومنحه الكفالة التي فرضتها الحكومة السعودية على اليمنيين العاملين في أراضيها، بعد أن ألغت كل الامتيازات التي حصلوا عليها لسنوات طويلة، وهي الامتيازات التي جاءت ضمن بنود الصلح بين اليمن والسعودية في ثلاثينيات القرن العشرين. كان العائدون مدفوعين بعواطف وطنية غير محسوبة العواقب؛ فقد رأوا في قرار الحكومة السعودية بشأنهم تعسفاً وعقوبة جماعية قاسية، وطرداً متعجرفاً جاء كرد فعل متعالٍ إزاء الموقف الرسمي المتعجل لأول حكومة للدولة اليمنية الموحدة من الأزمة آنذاك، حين أعلنت رسمياً رفضها للتدخل الأمريكي العسكري في المنطقة، بينما مارست نوعاً من التحريض المتهور لموقف شعبي تكوّن بسرعة الأحداث المتعاقبة ليظهر للجميع حينها بأنه دعم واضح لاحتلال الكويت.

والحق أن قرار المغتربين اليمنيين في العودة نهائياً من السعودية لم يكن سهلاً؛ فعلى الرغم من الآمال العظيمة التي شعروا بها بعد أن توحدت اليمن قبل أشهر فقط، كانوا يعرفون أنهم عائدون إلى بلادهم وقراهم، وزوجاتهم وأطفالهم، عاطلين عن العمل، وأن ما بحوزتهم من مدخرات لم يكن يكفي إلا لأشهر قليلة، كما أن العودة النهائية من الغربة لم تكن في حساباتهم على الإطلاق. كانت الغربة "مهنتهم" الوحيدة، لهذا لم يستعدوا للتخلي عنها تماماً. وعلى الرغم من

كل ذلك، حسموا أمرهم بسرعة، وعادوا بمعنويات مرتفعة، واستقبلهم الناس كأبطال، دون أن يعرفوا أنهم بعد سنوات قليلة، تحت وطأة الفاقة وقلة الأعمال وازدياد اللوم من أهاليهم، سيتمنون لو أنهم لم يستعجلوا في العودة، خاصة وأن الحكومات اليمنية المتعاقبة أثبتت فشلاً ذريعاً في النهوض باقتصاد البلاد، ولم تفعل لهم شيئاً، لتتركهم فريسة سهلة لقدرهم المحتوم. كما أصبح باب عودتهم إلى الهجرة مغلقاً تماماً، بعد أن قامت الحكومة السعودية، وبموافقة قادة اليمن المتخمين بالرشاوى، بتشديد شروط العمالة على اليمنيين بشكل خاص. وهكذا، لم يجد معظم العائدين من أبناء القرية بدأ من العودة إلى فلاحة الأرض، التي كانوا قد هجروها أثناء غربتهم الطويلة هناك، أو القيام بأعمال بسيطة لا تكاد تسد رمقهم. يحلمون بأن تتغير الظروف يوماً ما ليتمكنوا من العودة للاغتراب مرة أخرى. كان العمدة، على الرغم من تأييده لعودتهم في البداية، يسخر منهم بشكل لاذع، وإذا ما أتيحت له فرصة للنيل من أحدهم يرفع كفيه باستهجانٍ متصنع قائلاً:

- ملاعين!... ها هم قد عادوا مثل أسمالٍ بالية!... يعني بالكاد تخلصنا منهم!... وها هم قد عادوا لا فائدة منهم...

عاد "مصلح سعيد" بالقليل من المال، وبطاحون "ديزل" بمولد كهربائي أصبح مصدر رزقه الوحيد، والمصدر الوحيد

لإضاءة القرية لسنوات قبل أن تدخلها الكهرباء العمومية في بداية الألفية الثالثة.

46

يشعل "مصلح سعيد" سيجارة أخرى قبل أن يكمل حديثه وهو ينظر ملياً إلى خشب سقف الغرفة كمن يستنطقها، وقد لاحظ ميلاً مزعجاً في إحداهن:

- مازلت أتذكر ظهيرة ذلك اليوم الذي كنا نسبح فيه في سدّ القرية، وكاد الأمر أن يتحول إلى كارثة حقيقية، بعد أن اختفى كريم تحت الماء لوقت طويل واعتقدنا أنه غرق... ارتعبنا لذلك وتملكنا الخوف... توزعنا حول السد نغوص في كل أرجائه لكن دون جدوى... ذهب بعضنا يجري بفزع إلى القرية طلباً للمساعدة، بينما استمر بقيتنا في البحث اليائس وقد جفت حلوقنا رعباً. عادت إلى أذهاننا تلك القصص المخيفة والخرافات المتعلقة بالسد، التي كنا نسمعها من أهلنا والآخرين، والتي لم نكن نأخذها بمحمل الجد، فقد كنا نعرف أن الغرض منها هو إبعادنا قدر المستطاع عن العوم في مياه السد، خوفاً علينا من الإصابة بالأمراض... على العموم، عندما وصل أول رجال القرية

مهرولاً بصحبة الآخرين كانت المياه قد بدأت تتحرك بشكل غريب، محدثة تموجات لولبية ما لبث أن ظهر من منتصفها رأس كريم... انتشلناه تحت هلع الجميع وقد أغمي عليه. أتذكر أنه كان مبتسماً عندما أفاق؛ لكنه ظلَّ لساعات فاقداً الذاكرة تماماً... كنا نحدثه ولم يكن يرد علينا... لكنه في صباح اليوم التالي استعاد ذاكرته وقد أضاف إلى جعبته المزيد من القصص والخرافات التي كان يحكيها لنا متلذذاً بالرعب الذي كان يبثه في نفوس بعضنا...

يتوقف عن الحديث مبتسماً وقد أسعفته ذاكرته بتفاصيل جديدة ثم يضيف:

- من هذه القصص أن فجوة انفتحت في قاع السد وسحبته إلى داخلها ليظهر بعد ثوان في سطح بحيرة داخل كهف مليء بالدخان، وأنه التقى صفية بنت الشيخ حمود حيدر، التي يقال إنها اختفت في طواق العروس منذ زمن بعيد، وكانت قد تزوجت من أمير الجن، وأعطته أمانة ليسلمها لشخص لم يبح باسمه قبل أن يعيدوه إلى السد مرة أخرى...

يضحك كثيراً ويستمر في الحديث:

- كان كريم يستطيع بالفعل إرعابنا بحكاياته المخيفة... كانت صداقته، رحمه الله، ممتعة ومليئة بالحركات الغريبة... العجيب

أننا بعد فترة وجيزة نسينا الموضوع تماماً، بعد أن تعززت القناعة لدى أهالي القرية أن الأمر كان برمته مزحة سخيفة اتفقنا عليها جميعاً.. لهذا تم معاقبتنا، رغم أننا حاولنا قدر الإمكان أن نقنعهم بأن الموضوع لم يكن مزحة أبداً، وأن ما حصل قد رأيناه بأم أعيننا.. لكننا مع مرور الوقت يئسنا ونسينا الموضوع، أو ربما اقتنعنا مثل الآخرين أنها كانت مزحة...!

يتوقف عن الحديث ويقطب حاجبيه، كما لو كان يحاول أن يتذكر تفاصيل إضافية، لكن دون جدوى. يحشر سيجارته في إحدى فتحات المرمدة البلاستيكية، ويأخذ غصناً من القات ويمضغه بتروٍّ قبل أن يعاود الحديث:

- على العموم، كنا قد التحقنا معاً بالمدرسة الوحيدة آنذاك في السياني، التي كانت تبدو لنا في ذلك الوقت مدينة كبيرة...

تقع "السياني" في أسفل جبل التعكر من الجهة الجنوبية، على طريق البريد والقوافل المرصوف بالحجارة، الذي عبَّدته الملكة "أروى" في القرن التاسع الميلادي. كان المسافرون حتى وقت قريب، قبل أن يُشق الطريق الرئيسي، يتوقفون في "السياني" للاستراحة أو المبيت قبل أن يواصلوا طريقهم، شمالاً نحو مدينة "جبلة"، أو جنوباً نحو مدينة

تعز. مع مرور الوقت، توسعت القرية لتصبح مركزاً حكومياً يضم العديد من "العُزَل"، منها "عزلة النقيلين". بعد قيام ثورة 1962 كانت "السياني" موعودة بأن تصبح واحدة من المدن الرئيسية في اليمن؛ غير أنها بعد أكثر من أربعين عاماً، وعلى عكس المتوقع، لم تصبح كذلك، فما تزال حتى اليوم قرية كبيرة مهملة ومحرومة من أبسط الخدمات.

غير بعيد عنها، في "نقيل برَدان"، وفي منطقة تُعرف بـ"المقتالة"، وقعت، في بداية القرن الثامن الميلادي، معركة طاحنة بين جيش علي بن الفضل القرمطي، الذي عاد قبل سنوات من "الكوفة" داعياً للمذهب الفاطمي في اليمن، وجيش جعفر بن إبراهيم المناخي، نائب "آل زياد". المعركة انتهت بمذبحة كبيرة لجيش الداعية الذي جُرح فيها واختفى من بين جنوده لأيام، قبل أن يلتحق بهم من جديد في بلاد "يافع"، ويستعيد قواته ليتمكن بعد أقل من عام من محاصرة جعفر المناخي والاستيلاء على عاصمة حكمه في "المذيخرة". يردد بعض الأهالي أسطورة مفادها أن أنصار ابن الفضل من أهالي المنطقة، الذين قاتلوا معه في معركته الخاسرة تلك، أخفوه في "صَبل"(31) بمنطقة "المحرس"، وحاولوا أن يداووا جراحه البالغة، لكن دون جدوى. تقول الأسطورة، التي تناستها الأجيال المتلاحقة، إنه قبل أن يشرف على

---

(31) الصَبل: الاسطبل.

الهلاك، وقد اشتدت عليه الحمى، زاره ملاك فوق حصان مجنح هبط من السماء، وأخذه إلى قمة جبل التعكر، قبل أن يعيده فجر اليوم التالي وقد تحسنت حالته كثيراً.

﴿47﴾

يستأنف "مصلح سعيد" حديثه بعد أن انشغل في وضع المزيد من أغصان القات الطرية في فمه، ورشف رشفة من ثقب غطاء قارورة الـ"كندا دراي" بنكهة الرمان:

- في الصباح الباكر كنا، شأن جميع طلاب قرى المنطقة، نهبط النقيل الطويل، المرصوف بالحجارة، بمرح ومزاح لا يتوقف؛ لكن النقيل كان يتحول عندما نعود من المدرسة وقت الظهيرة، إلى عقبة منهكة. في منتصف الطريق الصاعدة، وبعد أن يصبح في مقدورنا الإشراف على السياني، ومدرستها التي بنيت حديثاً، كنا نمر بمقبرة المقتالة، قبل أن ندلف إلى داخل أطلال سمسرة المحرس لنستظل ونستريح فيها قليلاً قبل أن نستأنف رحلتنا المنهكة إلى بيوتنا...

* * *

لم يقتصر استخدام "سمسرة المحرس" كخان لإيواء المسافرين أو كاستراحة للقوافل، بل كانت مركزاً تجارياً كبيراً

لبيع وتبادل السلع التجارية المتنوعة، وما يزال الأهالي من كبار السن يتذكرون سوقها الأسبوعية الكبيرة التي كانت يأتي إليها الناس من جميع أنحاء المنطقة، قبل أن تختفي تدريجياً بعد أن تم تعبيد وسفلتة الطريق الرئيسي الجديد، الذي نشأت على جوانبه دكاكين عشوائية، وتتحول السوق إلى "النجد الأحمر"، لتُهمل "السمسرة" خلال سنوات قليلة، ويتهدم جزءٌ كبير منها.

تتوزع الصالات داخل المبنى الرئيسي للسمسرة، المبلطة أرضيته بالحجارة، على أكثر من 66 عقداً حجرياً، وبشكل هندسي مدهش، بينما زينت جدرانها من الداخل تشكيلاتٌ زخرفية متنوعة رُسمت بدقة متناهية على ظهر الحجارة الصلبة التي استخدمت في بناء كل أجزاء السمسرة التي يتوسطها صحن مربع من الأسفل وآخر شبه دائري من الأعلى تعلوه "شماسية" تستخدم للتهوية والإضاءة، كانت مغطاة بقبة مركزية سقطت خوذتها بفعل عوامل الزمن.
لمبنى السمسرة الدائري الشكل باب واحد كبير، ولا توجد بجدارها الخارجي نوافذ أو فتحات على الإطلاق. كانت معظم الغرف، التي تتوزع بعقودها المتداخلة مع عقود الممر الرئيسي، مخصصة لمبيت المسافرين والتجار، وبعضها الآخر كان لخزن البضائع. كما كانت هناك غرفتان قريبتان من باب "السمسرة" مخصصتان لـ"المقهوي" وعائلته التي كانت تقوم بخدمة "السمسرة" وروادها. تمتد على بعض جدران

"السمسرة" من الداخل والخارج "دِكاك" خُصصت لجلوس المسافرين غير المقيمين، ولإطعام الحيوانات وسقايتها من الأحواض التي كانت تمتلئ بمياه الأمطار عبر مزاريب مقضضة. على الجدار الخارجي للسمسرة يرتفع قليلاً برجٌ مربع الشكل كان فيما يبدو يستخدم لحراسة السمسرة وروادها.

كان لـ"السمسرة" مسجد مجاور وحوانيت خارجية ومعصرة زيوت حجرية، إضافة إلى مبنى صغير بدون سقف يستخدمه عُقَّال السوق لإدارة شؤون البيع والشراء وحل المنازعات. ليس مستغرباً ألا يعرف أحد على وجه الدقة متى بُنيت "السمسرة"؛ لكن معمارها الكبير الباذخ مقارنة ببقية السماسر، وموقعها على طريق القوافل الممتد من ميناء "المخاء" إلى تعز، ثم إلى "إب" مروراً بـ"جبلة" وحتى صنعاء، بجانب ينابيع المياه ومدارب السيول، يرجح القول السائد بأنها تعود إلى عصر الدولة الصليحية، وأن من بناها، حسب ما تقوله الحكاية الشعبية المتداولة، هو أحد أمهر البنائين اليهود من أبناء المنطقة كان قد شغف حباً بالملكة "أروى". تقول الحكاية إنه قام ببناء السمسرة مع ملحقاتها المتعددة على أنقاض "صَبل" قديم ليقدمها هدية أو مهراً لها... ما اسم هذا العاشق السيئ الحظ؟! وهل تقدم فعلاً لخطبتها؟! ثم ماذا كان مصيره؟!... للأسف هذا ما لا تذكره الحكاية الشعبية. أما العمدة فقد كانت له رواية جامحة

الخيال تقول إن الملكة "أروى"، بعد أن تيقنت من اكتمال بناء "السمسرة"، أمرت بقتل ذلك العاشق، ودفن جثته في أرضية إحدى غرف "السمسرة"...

- من أين تأتي بهذه الخرافات يا عمدة؟!

- خرا... ماذا؟! من قال لك هذا يا ملعون؟!

يلتفت العمدة نحو السائل بسخرية، ثم يضيف متعمداً إخافة سامعيه:

- صدقوني! ما يزال أنينه يُسمع بوضوح... يعني اذهبوا إلى هناك فقط وستسمعون أنينه بآذانكم الغبية يا ملاعين!...

48

يُصلح "مصلح سعيد" وضعية المخدة تحت يده اليسرى، ويضع مزيداً من أوراق القات في فمه فيزداد خده الأيسر انتفاخاً حتى يكاد يغطي على عينه اليسرى، ويسترسل في حكاياته:

- كان كريم أنيقاً، وطالباً ذكياً... ومنذ صغره كان شغوفاً بقراءة الكتب والقصص، التي كان يحضرها له الشيخ العارض أو التي يسمح له بأخذها من مكتبة دار البخور... على العموم كان من القلائل الذين يجعلوننا نشعر بالفخر أمام المدرسين المصريين، الذين كانوا يستغربون شطارته ومعلوماته الكثيرة التي كان يتباهى بها أمامهم، بل وأمام أهالي السياني، الذين كانوا عادة ما يسخرون منا، نحن أبناء القرى، بملابسنا المتسخة ومستوى تعليمنا المتواضع... ليس هذا فحسب، بل لقد كان له معجبات أيضاً، وهو أمرٌ نادر الحدوث آنذاك... مما جعل خصومه يتزايدون من شباب السياني، فكانوا يتربصون به لأتفه الأسباب، وهو ما كان يحتم علينا العراك معهم للذود عنه...

يبتسم وقد رفع نظره نحو خشب السطح من جديد قبل أن ينفث آخر نفسٍ من سيجارته متمتماً:

- إيه! يا لها من أيام!

* * *

في ستينيات القرن الثالث عشر للميلاد، كانت "السياني" ما تزال قرية صغيرة تُعرف بـ"المشراح"، لا تكاد بيوتها القليلة تُعرف من خلال أغصان أشجار "الطولق" العملاقة المحيطة بها، عندما وصلت إلى مشارفها حوافر خيول موكب الأميرة الرسولية "الدار النجمي".

كانت الأميرة قد حاولت قبل أسابيع إقناع "الفقيه سعيد الحرازي" بأن ينتقل إلى "جبلة" للإشراف على دار العلم الجديدة التي تم إنشاؤها مؤخراً. لم يكن "الفقيه سعيد" يرغب بالانتقال إلى "جبلة"؛ ليس لأنه قد أَلِفَ العيش في قريته وحسب، بل ولأنه كان أيضاً قد توصل بفطنته إلى قناعة واضحة تتلخص بعدم الاقتراب من حياة قصور السلاطين والحكام، أو الاضطلاع بمهام ذات طابع رسمي، مكتفياً بتنظيم شؤون الأهالي وتدريس أبناء المنطقة وانشغاله بالعلم والتأليف. لهذا أرسل إلى الأميرة رسالة اعتذار كان لبلاغتها، وما احتوته من قوة حجة وإقناع، أثر عكسي على الأميرة؛ إذ زاد إصرارها على انتقاله إلى "جبلة". ولأنها

بدهائها تعرف أقصر الطرق إلى إقناع رجل مثله، فقد قررت أن تأتي إلى قريته بنفسها وتكرر عليه طلبها الذي تدرك أنه لن يخيب هذه المرة. لم يكن في وسع "الفقيه سعيد" إلا الإذعان؛ احتراماً لمقدمها وإصرارها. وهكذا انتقل إلى "جبلة" ليصبح معلماً ومشرفاً على مدرستها "النجمية".

لم يكن مثل هذا الإصرار من قبل "الدار النجمي" مستغرباً في ذلك الوقت، فقد كان شائعاً اهتمام نساء "بني رسول" بإنشاء الجوامع ودور العلم، وتخصيص الأموال والأملاك الكثيرة أوقافاً لها؛ فكان لريعها الفضل في بقاء معظمها حتى اليوم. هذا إلى جانب التنافس فيما بينهن على استقطاب من يقومون على هذه المنشآت من معلمين وفقهاء متميزين، ومن هؤلاء الفقيه سعيد بن أسعد بن علي الحرازي، الذي كان، حسب ما تذكره المصادر التاريخية، قد عُرف "بعلمه وحسن صوته وخطه الجميل"، وشهرته بين طلاب العلم في جامع "ذي أشرق"، الذي تلقى فيه علومه الأولية في صغره، وما شاع عنه أيضاً "من عزوف عن الدنيا، ودخوله الأسواق والتجمعات واعظاً ومرشداً روادها، ناهياً إياهم عن الغفلة، ومذكراً بحسن المعاملة".

"الدار النجمي" لم تكن وحدها من اهتم بـ"الفقيه سعيد"، فقد كان ينافسها في هذا الأمر ابن أخيها، السلطان المظفر يوسف بن عمر، المؤسس الفعلي للدولة الرسولية، التي استمرت أكثر من قرنين، شهدت خلالها

اليمن أخصب عصورها ازدهاراً بالمعارف والفنون، واتسعت رقعتها من أقصى أطراف حضرموت شرقاً حتى أطراف الحجاز شمالاً. يذكر لنا التاريخ أن السلطان المظفر كان حريصاً، حد المبالغة، على تعليم أبنائه؛ لهذا ما إن علم بنجاح عمته في إحضار "الفقيه سعيد" إلى "جبلة" حتى استأذنها في جعله معلماً ومؤدباً لابنه "الأشرف عمر بن يوسف"، بعد أن كان قد جعل الفقيه جمال الدين الحضرمي معلماً لابنه "المؤيد داوود بن يوسف"، لينتقل "الفقيه سعيد" دون تردد هذه المرة إلى تعز، عاصمة الدولة الرسولية؛ ليس لرغبته في ذلك، أو لتغير في قناعاته، بل لمعرفته بعدم قدرته على الرفض، واستسلامه مكرهاً للوقوع في مصائد الأقدار، التي طالما حاول تفاديها دون جدوى.

﴿49﴾

يكمل "مصلح سعيد" ذكرياته باسترسال مريح وقد عقد حاجبيه:

- لم نفترق أبداً إلا بعد سنوات، عندما سافر بعضنا، وأنا منهم، إلى السعودية للعمل، واستمر الآخرون، ومنهم كريم، في الدراسة. كنا نتبادل الرسائل دائماً. ومازلت أحتفظ برسالته التي أخبرني فيها بأنه سوف يسافر إلى عدن لإكمال الدراسة هناك، مع مجموعة من شباب المنطقة، على الرغم من اعتراض عمته كُرامة وتردد الشيخ العارض. كم حسدته آنذاك؛ فقد كان الذهاب إلى عدن حلماً بالنسبة لنا...! كنا عادة ما نتابع تلفزيونها، الذي كان بثه يصل واضحاً إلى قريتنا. كنا نتمنى أن نذهب إليها، وأن نسبح معاً في بحرها الساحر، ونتمشى في حدائقها، ونرتاد أنديتها والدراسة في كلياتها، حسب ما كانت مخيلتنا المراهقة آنذاك تصوره لنا، متأثرين بمبالغات بعض الشباب الذين عادوا من هناك. لا بد أنهم أقنعوه بالذهاب معهم! لا أعرف تماماً

كم مكث هناك، فقد انقطع التواصل بيننا لفترة طويلة، استلمتُ بعدها رسالة منه يخبرني فيها بأنه عاد إلى القرية، وأنه سيحكي لي تفاصيل حياته في عدن برسالة قادمة؛ لكنه لم يفعل ذلك. بعدها بأعوام، وفي إحدى زياراتي للقرية، التقيته، وكدت لا أتعرف عليه؛ فقد كان مكتئباً بعد وفاة زوجته. حاولت أن أقنعه بالزواج مرة أخرى، وبالمجيء معي إلى السعودية للعمل؛ لكنه لم يستجب لي. على العموم كانت زياراتنا لليمن حينها قصيرة، يحدد نهايتها نفاد النقود التي نجلبها معنا إلى القرية، وبعد أن نسرف في إنفاقها نقترض قيمة تذاكر السفر من العمدة ونعود إلى السعودية، دون أن يتسنى لنا تنفيذ ما كنا نريد القيام به، أو مسح دموع زوجاتنا وهن يلوحن لنا من أسطح المنازل...!

* * *

لم يتذمر "الفقيه سعيد" طويلاً من وجوده في دار السلطان المظفر؛ إذ سرعان ما تأقلم مع وضعه الجديد، وانشغل في تعليم تلميذه "الأشرف"، الذي أعجب به كثيراً إذ أبدى نبوغاً وجدارة في التعلم أكثر مما كان يتوقعه.

هكذا وجد "الفقيه سعيد" ضالته في "الأشرف"، فأخلص في تعليمه وإرشاده، وهو ما كان بمثابة العزاء له، دون أن يعرف أن الأقدار كانت ما تزال له بالمرصاد، فعلاقته مع الأمير ومع أبيه توترت كثيراً بعد أن قرر السلطان المظفر التنازل عن عرش السلطنة لابنه "الأشرف"، بعد أن أحرز الأخير انتصارات كبيرة في قمع التمردات وتثبيت حكم أبيه، الذي كان -كما تقول المصادر التاريخية- "قد اضطربت أموره وخالف عليه أهالي مشرق اليمن ومغربها، وفسدت عليه البلاد في ربوع كثيرة".

﴿50﴾

على تخوم "الساعة السليمانية"(32)، وقد استحوذ الصمت على المقيل، يضيف "مصلح سعيد"، وقد هزته الذكريات:

- على العموم، عندما رجعنا من السعودية بعد احتلال الكويت، كان كريم في استقبالنا، مثل غيره؛ لكنه كان متحفظاً بحذر في تأييده لقرار عودتنا.. ومن تلك الأيام لم نفترق أبداً.. كنا نهجر المقايل ونقضي أوقاتنا في مضغ القات في جرف مطل على القرية، مصطحبين معنا الراديو، نتابع تطورات الحرب، التي كنا نطلق عليها أم المعارك، بينما أطلق عليها العالم عاصفة الصحراء. قبل أن تبدأ الشمس بالمغيب، كان عادة ما يبدأ بقراءة كتاب قديم لم يفارقه طيلة تلك الفترة، ينقل منه بعض الجمل في دفتر صغير.. كان هذا المشهد معتاداً، فهو لم يكن يمضغ القات

---

(32) الساعة السليمانية: مصطلح شائع في اليمن يطلق على فترة ما قبل الغروب حين يكون متعاطي القات قد وصل إلى ذروة النشوة، فينشغل فيها بنفسه وأفكاره وآماله وأمانيه وكأنها قيد التحقق، ولعل ذلك سبب نسبتها إلى النبي سليمان.

إلا وبيده كتاب أو صحف ومجلات يقرأ منها دائماً... طبعاً كان من القلائل المسموح لهم باستعارة الكتب من مكتبة دار البخور، هذا بالإضافة إلى العمدة حفظه الله، الذي أعتقد أنه كان يتصنع قراءتها كنوع من التفاخر... لم نعد نسأل كريم عما يقرأ أو يكتب، فقد كانت ردوده مبهمة، فنكتفي بتبادل الآراء معه حول قضية الساعة: الحرب وماذا سيحدث في المنطقة! وعلى الرغم من أن الجميع كان منشرحاً بعد تحقيق الوحدة والآمال كانت كبيرة؛ إلا أنه كان يرد علينا بتشاؤم... مؤكداً أن الحرب ستستمر، وأن أمريكا ستستعمر دول المنطقة، وأننا لن نتمكن من العودة إلى المهجر كما كنا نعتقد... لم نكن نأنس لأقواله تلك، المغردة خارج السرب، فنقوم بتغيير الموضوع، ونتحدث في بعض الأمور المتعلقة بالزراعة، عن المطر الذي لم ينقطع، وتخوف الأهالي من تعذر الحصاد، مستذكرين الأهازيج والأبيات الشعبية الزراعية وحِكَم علي ولد زايد... كان قد تغير كثيراً، وأصبح أكثر تأملاً وأقل كلاماً...!

يتوقف "مصلح سعيد" عن الكلام وقد دمعت عيناه. يمسحهما متنهداً:

- رحمه الله!

* * *

كان "الفقيه سعيد" قد نصح تلميذه "الأشرف" بعدم الموافقة على استلام مقاليد الحكم بهذه الطريقة، وضرورة إقناع أبيه بالعدول عن رأيه حتى يتم التوفيق بينه وبين أخيه "المؤيد"، محذراً إياه مما سيثيره ذلك من حنق الكثيرين من القادة... إضافة إلى أن الدولة ما تزال غير مستقرة تماماً، وإن كانت معظم التمردات قد تم القضاء عليها.

في حقيقة الأمر، كان "الفقيه سعيد" يخاف أن يعزف "الأشرف" عن العلم والتأليف إن هو انشغل بأمور الحكم من بعد أبيه، فقد كان يرى في هذا الأمير الرسولي عالماً أكثر من كونه قائداً أو حاكماً... وقد كان محقاً في ما اعتقده، فـ"الأشرف" بعد سنوات لن يصبح واحداً من أشهر ملوك الدولة الرسولية فحسب، بل ومن أهم علماء اليمن في ذلك العصر، فمؤلفاته التي تعددت مجالاتها، من الطب والبيطرة والفلك إلى الآداب والفلاحة، تركت بصماتها المهمة في مسيرة تطور العلوم والآداب، وتناقلتها الأجيال في ربوع العالم الإسلامي، الذي كان نجمه قد بدأ في الأفول.

إضافة إلى هذا، كان "الفقيه سعيد" متعاطفاً مع أخيه "المؤيد" الذي رأى أنه يصلح لأمور الحكم أكثر من

"الأشرف"، وكان يشعر أنه مظلوم من قبل أبيه، الذي كان لا يخفي أمام الملأ إيثاره لتلميذه... كانت كل هذه القناعات تلح على "الفقيه سعيد"، وتشعره بأن عليه أن يفعل ما بوسعه لإقناع "الأشرف" بالتأني ومراجعة أبيه في الأمر... لكنه كان يعرف أنه يخاطر كثيراً بإقحام نفسه في هذه الأمور، وهو الذي كان مؤمناً بيقين لا يتزحزح بعدم التدخل في أمور السلاطين والحكم... فمثل هذا التدخل لا بد وأن يكون له عواقب سيئة، وهو الأمر الذي حدث فعلاً؛ إذ لم تحظ نصائحه تلك بالقبول لدى "الأشرف". ليس هذا فحسب، بل إن "الأشرف"، الذي شعر أن معلمه يخذله في أهم لحظات حياته، كان قد غضب منه ولم يعد يستدعيه في مجالسه كالعادة... بل إنه لم يبادر حتى بالتدخل لدى أبيه المظفر عندما أمر بحبس "الفقيه سعيد"، الذي كان، في إحدى خطب الجمعة، قد رفض أن يبارك نقل السلطة. وهكذا زج بـ"الفقيه سعيد" في سجن "قلعة القاهرة"، ليتحقق قدره المحتوم الذي توقعه وحاول تفاديه طويلاً، وخابت آماله في ما كان يطمح إليه، وما عمل من أجله بكل إخلاص.

تقول المصادر التاريخية إن المظفر قبل موته بستة أشهر تنازل للأشرف عن الحكم في احتفال كبير، "فقام الأشرف بالملك بعد أبيه، واستولى على الحصون والمدن وسائر المخاليف اليمانية. ولما علم أخوه الأمير المؤيد داود بن يوسف

بموت أبيه، وكان في مدينة الشحر من حضرموت، خرج منها طالباً المُلك، فأرسل إليه الأشرف بجيش يقوده ابنه محمد، واحتدم الجيشان، وتم الأمر بهزيمة المؤيد وقدومه مقيداً إلى تعز".

﴿51﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

والدي الصدر الأجل/ راجح العارض   المحترم

تحية طيبة من قلب حزين وخائف تملؤه الشكوك والأوهام.

عرفت أنكم غضبتم لتخلفي عن العزاء وهو شيء مؤسف حقاً؛ لكنني حينها لم أكن أنا... كنتُ بعيداً... بعيداً عن كل شيء... في مكان مظلم ومخيف ما يزال يعيش بداخلي... لا بد أنكم والدي العزيز تتفهمون ذلك. بالنسبة للصحة فقد بدأت أستعيدها تدريجياً، والحمد لله سوف تتعافى جراح ساقَيّ قريباً.. وقد أكد لي الدكتور عبد الرحيم أنه مطمئن من أنها ليست غرغرينة كما أخبروني في مستوصف

الراهدة... ستتعافى جراح جسدي قريباً أما جراح قلبي فلا يعرف إلا الله متى ستندمل!

والدي الأجل، لا بد أنكم تعرفون أن حزني واضطراب مشاعري ليس بسبب موت ريحانة، أو موت ما كان في بطنها من صلبي وحسب، فالموت علينا حق... بل لشعوري الكبير بالذنب الذي لم أستطع أن أقاوم تسلطه على ذهني وضميري المتعبين، وهو الشعور الذي كنت قد أسررت لك به أثناء مرضها المفاجئ. أفكر دائماً ولا أجد الإجابة.. هل كان موتها قضاءً وقدراً أم كان بسببي؟! لقد حذرتموني مراراً من أمور لم أكن أصدق مدى خطورتها... وها هو الندم يلتهمني.. لا أحتاج منكم سوى إلى مساعدتي هذه المرة في الوصول إلى الحقيقة، فوحدكم من يستطيع فعل ذلك... أعرف أن هذا الكلام لن يعجبك، وأنه لا ينبغي أن أبوح به في رسالتي هذه لكنني حقاً لم أعد أعرف ماذا عليّ فعله! سأنتظر

وصولكم بفارغ الصبر، أو قد آتي إليكم إلى صنعاء بعد أن تبرأ جراح ساقَيَّ... المهم أن نلتقي في أقرب وقت، وحسناً فعلتم بتغيير مغالق المكتبة على الرغم من أنني ما زلت على وعدي بعدم الإقدام على شيء حتى نلتقي.

عمتي كُرامة والجميع يسلمون عليك وعلى أمي حليمة... وكذلك العمدة، الذي مازال غاضباً مني ولا يحدثني إلا باقتضاب... ليس هناك من أخبار هامة سوى أن الناس يشتكون من شح الأمطار كالعادة...

لكم خالص المحبة والاحترام

ولدك المطيع

كريم

﴿52﴾

لم يكن "الأشرف" يدرك، وهو يستقبل جيشه المنتصر، أن مشاعر الرضا من استتاب الأوضاع له سرعان ما ستتحول إلى حالة من الذعر والأسى وهو يلمح، من خلال الغبار الذي كانت تثيره خيول الفرسان المنتصرة، وجه أخيه المتعب، ونظراته الزائغة وهو يمشي متعثراً والأغلال في يديه. حينها لم يستطع منع دموع الندم التي ذرفها خلسة، وقد شعر بالخجل من نفسه... وبحزن، تذكر معلمه "الفقيه سعيد"، ونصائحه التي تجاهلها، واستغرب كيف أن أمور الحكم كانت قد أكسبته، في فترة قصيرة، توحشاً وقسوة...!

يذكر التاريخ أن "الأشرف" جعل أخاه الأسير تحت الإقامة الجبرية في "قلعة القاهرة، ورتب له ما يكفيه من الزاد"، كما أمر بعد أشهر بإطلاق سراح "الفقيه سعيد"، الذي لم تمر إلا أيام قليلة حتى استأذن "الأشرف" أن يعود إلى أهله بعد أن تدهورت صحته كثيراً في السجن، فأذن له؛ لكن صحته المعتلة لم تسعفه للوصول إلى قريته، فتوفي في طريق العودة، ودُفن غريباً في قرية تدعى "السمكر" بالقرب من مدينة "الجَنَد".

بعد أقل من عامين توفي "الأشرف"، بعد أن أصيب بمرض لم يستطع الأطباء مداواته، فاجتمع كبار رجال الدولة، وأطلقوا سراح "المؤيد" من السجن، ونودي به ملكاً سنة 1269، لتخضع له أقاليم البلاد من أقصى حضرموت إلى تخوم الطائف، وليحكم اليمن لأكثر من ربع قرن من الزمن.

"قلت لكم اقتربت الساعة... خلاص... وما عليكم إلا أن تستعدوا للشواء في نار جهنم يا ملاعين!".

العمدة

"لا بد أن أول يوم للخليقة كان جميلاً هكذا...!".

الشيخ العارض

الفصل الخامس

53

اختفى قبر "كريم" فجأة!... اختفى؟!... نعم اختفى تماماً، كما لو لم يكن! لكن هل يعقل هذا؟! لم يسبق قط أن اختفى قبرٌ حديث من مكانه. تندثر القبور وتختفي معالمها عبر السنين؛ لكن لم يسمع أي شخص أن قبراً قد اختفى فجأة في يوم من الأيام، عبر تاريخ "عزلة النقيلين"، أو حتى في أي مكان آخر في البلاد كلها... حتى العمدة، الذي أصبح طريح الفراش منذ اليوم الذي اكتشف الناس فيه اختفاء القبر، اعترف لزواره بحيرته من هذا الأمر الذي لم يسبق أن سمع بمثله أبداً:

- إنها من علامات الساعة... يعني يوم القيامة...
- لا حول ولا قوة إلا بالله... لم نسمع عن شيء كهذا يا عمدة...
- ولن يتسنى لكم أن تسمعوا... صدقوني!
- ليلطف الله بنا...
- ولماذا؟!
- عفواً يا عمدة؟!

- لماذا يلطف الله بكم؟! هه؟!... يعني ليس لديه ما يبرر أن يفعل هذا يا ملاعين!

- استغفر الله يا عمدة... لا تقل مثل هذا الكلام...

يرد العمدة وقد أعجبه خوفهم:

- قلت لكم اقتربت الساعة... خلاص... وما عليكم إلا أن تستعدوا للشواء في نار جهنم يا ملاعين...!

* * *

كانت أعشابٌ وأشجارٌ شوكية مختلفة قد نبتت مكان القبر، الذي كان ما يزال هناك قبل يومين فقط من اكتشاف اختفائه. كانت "أمي حليمة"، التي لم تتوقف أبداً عن الحنين إلى القرية وحياة الريف، قد غادرت العاصمة بعد وفاة الشيخ العارض، لتعيش وحيدة في "دار البخور"، كما أرادت دائماً. أصبحت الأيام تمر عليها ببطء، تقضيها في الاهتمام بشؤون الدار والإشراف على أمور الأرض والزراعة، يساعدها في ذلك العمدة الذي لم يعد مرحاً بالقدر الذي تعود عليه الناس. "أمي حليمة" أكدت للجميع أن القبر كان ما يزال على حالته منذ يومين فقط حين وضعت عليه بعضاً من الريحان وورود "المطابق"، بعد أن أكملت زيارتها المعتادة لقبرَيْ زوجها وابنها غير البعيدين.

"آمنة بنت مُسيعيد"، ذات السنوات العشر، كانت أول من اكتشف اختفاء القبر. كانت قد ذهبت إلى المقبرة لتعيد إحدى الأغنام التي شردت بعيداً عن بقية القطيع. هناك لاحظتْ أن القبر لم يعد موجوداً. وعندما عادت إلى البيت أخبرتْ أمها، التي، كدأب الكبار في قريتنا، لم تهتم بهذا الكلام العجيب، بل قامت بدلاً عن ذلك بتوبيخها بسبب تأخرها في العودة. في صباح اليوم التالي كانت "آمنة" تهذي من الحمى التي اعترتها، مرددة حكاية القبر الذي اختفى. حينها قامت أمها، وقد اعتراها القلق، بإخبار "أمي حليمة" وأخريات بأمر ابنتها، وما قالته لها بالأمس.

توجهتْ "أمي حليمة" إلى المقبرة بصحبة بعض النسوة للتأكد من هذا الأمر، وقد شعرت بانقباض في صدرها، ولم يمر وقت طويل حتى انتشر الخبر سريعاً في القرية. وسرعان ما اكتظت المقبرة بأبناء القرية، بل وبأبناء القرى المجاورة، بعدما تأكد صحة الخبر. عندما وصل العمدة، الذي كان قد خف بصره كثيراً في الآونة الأخيرة، إلى المقبرة، يتقدمه "عزيز"، ويقوده أحد أحفاده الأحد عشر، أحس بإنهاك شديد، ولم يستطع أن يميز أي شيء؛ لكنه كعادته تظاهر بأنه قد رأى العشب الطري الذي نما مكان القبر الخالي، وتلك النباتات التي توزعت على مساحته المستطيلة المستوية.

زاد الهرج والمرج حول القبر، وتكاثرت الأقاويل، وبدأ الأهالي يمارسون هوايتهم المفضلة: الانقسام والاختلاف فيما بينهم، وحبك القصص والروايات، وقد اعتلت وجوههم علامات الفزع والرهبة. "السُلّيان" مثلاً كان يصرخ بصوته الأجش مدعيّاً أن القبر قد نُبش من قبل بعض اللصوص، دون أن يفسر غياب آثار النبش أو وجود تلك الشجيرات مكان القبر. أما الأستاذ "حمزة الماسر"، خطيب الجامع، فقد كان يؤكد أن ما حصل هو علامة على كثرة الذنوب وانشغال الناس عن أمور دينهم وارتكابهم للمعاصي، بينما تجادل آخرون، وهم يتقافزون بين القبور، حول موقع القبر نفسه... حينها شعر العمدة للمرة الأولى أن نهايته أوشكت، وبدأ قلبه العجوز يدق بقوة... وسرعان ما دارت الأرض من حوله، ليسقط مغشياً عليه.

﴿54﴾

قبل أكثر من ثلاثة عقود من السنين، وبالتحديد في الحادي عشر من شهر أكتوبر 1977، كانت السماء ملبدة بغيوم صباحية خفيفة؛ لكنها كعادتها، في مثل هذا الشهر، لن تمطر، وهو ما سيتيح لأشعة الشمس أن تبدد الغيوم، ليجف الندى عن العشب المبتل وأوراق الأشجار. كان الشيخ راجح العارض قد استيقظ مبكراً بروح عالية، ولبس ثيابه بتأنق واضح، وشرب قهوته على سطح "دار البخور"، مستنشقاً هواء الساعة السادسة المنعش. كانت السماء قريبة جداً، وكان الجو مفعماً برائحة الندى، وبعض خيوط الضوء الذهبية تتسابق بخفة على التلال، وعلى رؤوس عيدان الذرة... كان ثمة أصوات لطيور تمرح في الهواء وتخترق أغصان الأشجار الكثيفة، يقاطعها بين الحين والآخر أصوات ديكة القرية وزجل حمامات الدار مختلطة بصوت مياه "الجوهرة"، الذي كان يُسمع بوضوح، وهي تتدفق نحو أسفل الشلال الكبير... فكر الشيخ راجح في نفسه وهو يتأمل جمال الطبيعة البكر: "لا بد أن أول يوم للخليقة كان جميلاً هكذا...!".

كان يشعر بزهو وانشراح كبيرين، فها هو حلمه القديم قد تحقق أخيراً بعد طول انتظار؛ إذ تم بالأمس الانتهاء تماماً من شق الطريق الفرعي الذي يربط قرى "العزلة" بـ"النجد الأحمر"، المنفذ الوحيد إلى الطريق العام، وسيتمكن الأهالي أخيراً من إدخال سياراتهم ونقل البضائع ومواد البناء والتنقل بسهولة بين القرى... ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة: ستنمو "العزلة" وتزدهر أخيراًً!...

كان الشيخ راجح قد أيقظ ابنه "علي"، الذي كان قد أكمل للتو ربيعه الثاني عشر، ليرافقه في أول رحلة بسيارته، التي كان سائقه قد جاء بها إلى القرية، لأول مرة، مساء البارحة، من "النجد الأحمر"، حيث تعود الشيخ راجح أن يبقيها دائماً، ليواصل سيره إلى القرية إما على ظهر بغلة عجوز كانت آخر ما عاش له من الدواب التي كان يعج بها إسطبل "دار البخور"، أو مشياً على الأقدام كما يفعل جميع أبناء القرى. في ساحة الدار كانت أربع سيارات أخرى، دخل بها أصحابها إلى قراهم بالأمس أيضاً، قد اصطفت بجانب سيارته لترافقه هذه الرحلة الافتتاحية للطريق، كما تجمهر في ساحة الدار عدد كبير من أهالي القرية والقرى المجاورة. استقبلهم الشيخ بالترحاب، كما لو كان يوم عيد، محاولاً كعادته

توزيعهم على السيارات بنظام؛ لكنه لم يفلح ولم يأبه لذلك، فاليوم جدير بالاحتفال وقد قرر ألا يسمح لأي شيء أن ينغص عليه فرحته العارمة.

كانت "أمي حليمة" قد ألبست "علي" ثياباً أنيقة؛ لكنها لم تستطع أن تقنعه بأن يمشط شعره الكث، فقد كان متخوفاً من ألا ينتظروه، فهبط درجات الدار بسرعة ممسكاً بيد "كريم" الذي جاء ليستعجله.

كان "كريم" يكبر "علي" بثلاث سنوات؛ لكن ذلك لم يكن واضحاً؛ إذ كانا يبدوان متقاربين في العمر، ربما نتيجة للجهد الذي كان يبذله "علي" لمحاكاة أقرب أصدقائه في كل شيء، فقد كان "كريم" مثله الأعلى، وما إن ينتهي العام الدراسي حتى يبدأ "علي" بممارسة ضغوطه على أبيه وأمه لكي يسافر إلى القرية لقضاء الإجازة هناك. كان "كريم"، لفارق السن بينهما، يعجبه أن يمارس دور المعلم، فيقوم بتعريف "علي" بالأشياء التي يجهلها، مبيناً أسماء الأماكن، الأشجار، الأعشاب، والعدد الكبير من الحشرات... شارحاً بعض الظواهر الطبيعية التي درسها "علي" في المدرسة، مع بعض الإرشادات المختلفة الخاصة بتسلق الأشجار والمنحدرات، هذا بالإضافة إلى اللعب معاً مع أقرانهما من أطفال القرية أو القيام بالأعمال الزراعية... وكم كان ذلك يأخذ بلب "علي"، الذي عادة ما كان يتباهى أمام أبيه وأمه

بما اكتسبه من معرفة ومهارات جديدة تثبت أنه مثلهما، من أبناء القرية، وليس "ابن مدينة" كما يدعوه بتهكم بعض أقرانه في القرية... كان الشيخ راجح يضحك كثيراً لهذا، مدعياً أمام زوجته، بنوع من التفاخر المازح، أن جينات أسلافه هي التي تسيطر على تصرفات ابنه الوحيد، كما سيطرت، وما تزال، على تصرفاته هو...!

55

تدافع الجمع وتوزع بعضهم على مقاعد السيارات بشكل عشوائي، بينما تكوم البعض الآخر على جوانبها، وعلى ظهر السيارات المستخدمة للنقل. كان العمدة في ذلك الصباح منتشياً ومتأنقاً أكثر من المعتاد، وقد اتخذ مكانه في الكرسي الأمامي لإحدى السيارات المرافقة، دون أن يفوته التلويح بيديه من النافذة لزوجته وبناته وزوجات أبنائه اللواتي كنَّ، مثل بقية نساء القرية، يشاهدن الموكب من على أسطح المنازل. كان "علي" و"كريم" قد استطاعا أيضاً أن يجدا لهما مكاناً بجانب "الشرجبي"، وكيل الشيخ العارض، الذي بدوره كان قد حجز مكانه خلف مقعد الشيخ بجانب نافذة المقعد الأوسط لسيارة الشيخ، "اللاند كروزر"، التي تحركت أولاً لتقود الموكب وقد اكتظت بالركاب ومرافقي الشيخ الذين تكوموا في المقاعد الخلفية، وتبعتها السيارات الأخرى في جو من الفرح والاحتفاء الذي انتظره الجميع لفترة طويلة. وعلى طول الطريق كانت سيارات أخرى تنضم إلى الموكب وسط أغاني وتصفيق أكوام الركاب المتزاحمين.

لسنوات ظل الشيخ راجح يتذكر بألم ذلك اليوم: كيف انشغل عن "علي" عندما توقف الموكب في منتصف الطريق، وكيف رضخ بسهولة لإلحاحه، وإلحاح "كريم"، على اللحاق بـ"الشرجبي"، الذي انتقل إلى سيارة العمدة، بعد أن سمعا الهرج والمرج وضحكات العمدة وهي ترتفع منها. استأنف الموكب تحركه، وما هي إلا دقائق قليلة حتى قامت سيارة العمدة بتجاوز سيارته لتقود الموكب، وقد أخرج العمدة بندقيته "الجرمل" من نافذة السيارة مطلقاً الرصاص في الهواء، وهو يغني مع صوت المسجل الذي كان يصدح بصوت "السنيدار":

شجروها شجروها	**أرضنا ذات الجمال**
من سعى للخير نال	**ليس في الدنيا مُحال**

أفكارٌ شتى كانت تدور في عقل الشيخ راجح وقد امتلأت رئتاه بهواء الجبال المنعش، وأسلم ذهنه لتفاصيل خطط ومشاريع جديدة، وبدت الآمال تتفتح أمامه. شعر بالزهو فعلاً، فها هو قد استطاع عبر التعاونيات الأهلية أن ينجز شق الطريق، على الرغم من كل الصعاب التي واجهته، والعراقيل التي وضعها الكثير من رجال الحكومات السابقة لإفشال المشروع، إذ كانوا مصرين بعناد

على حرمان المنطقة من أية مشاريع، بما في ذلك مشروع الطريق، الذي تأخر كثيراً مقارنة بالمناطق المجاورة. لكن ها هي الحكومة أخيراً ترخي قبضتها على أبناء المنطقة الذين تعرضوا لسنوات طويلة من الإهمال كنوع من عقاب جماعي غير مباشر لمواقفهم المعارضة للسياسات التي انتهجتها حكومة المصالحة، لكأنما كان قدر "النقيلين" أن تكون مجبولة دائماً على معارضة الحكام.

عادت إلى ذهنه ذكرى الظروف الصعبة التي عاشها لسنوات، منذ أن أُخذ، منذ زمن بعيد، مع بعض أقرانه إلى السجن بعد أيام قليلة من زفافه، بسبب تصدر أسرته، مع أبناء المنطقة، لمعارضة الإمام يحيى، الذي قام بتشريد العديد من أهالي المنطقة، واحتلال بيوتهم، ومنعهم من الحصاد لأعوام، عقاباً على مناهضتهم لحكمه والتحاقهم بالحركة الثورية، بعد أن زج بالعشرات منهم في مختلف سجون اليمن الرهيبة، التي مات فيها نصفهم بسبب المرض والإهمال، ليُدفَنوا بصمت في المقابر المنتشرة خارج تلك السجون.

تذكر دموع عروسه وهو يسلمها بعض النقود، وكيف كان العمدة مع الآخرين من رفاقه بزنزانة السجن يزفونه مازحين... وطافت في مخيلته بحزن صور وجوه أبناء عمه وأصدقائه الذين ماتوا في السجون... تنهد وهو يتذكر أخاه "صالح"، الذي كان من أبرز رجالات حركة المقاومة، والذي بسببه دفعت أسرته، بجلد وصبر، ثمناً

باهظاً؛ أسرته التي تخاطف الموت أفرادها واحداً بعد الآخر، حتى لم يبق من رجالها سواه، وولده "علي"...

تذكر أيضاً دموعه التي ذرفها فرحاً بعد قيام الثورة، وكيف نجح، بعد سنوات مريرة، في فرض نفسه بين منافسيه، وجاهد طويلاً لإثبات مكانته كرجل دولة لدى الحكومة السابقة التي حاولت إقصاءه بعد وفاة أخيه "صالح"، أستاذه ومربيه بعد أبيه الذي مات وهو ما يزال طفلاً؛ أخيه الذي لم يتردد في الالتزام بمواقفه ومبادئه العنيدة، والاختلاف مع زملاء النضال الطويل، رافضاً مختلف المساومات، ومفضلاً حياة السجون، غير مبال بشيخوخته المتعبة... لكن الظروف تغيرت اليوم، وبدأت الحياة تبتسم له ولأبناء المنطقة، الذين قامت "حركة التصحيح" بإطلاق معظمهم من السجون السياسية، وها هو الطريق يُنجز أخيراً رغم كل التحديات، والبلاد، فيما يبدو، موعودة بالنماء.

كان الشيخ راجح قد غاص عميقاً في هذه الأفكار، ولم تخرجه منها سوى رؤيته السيارة التي أمامه تسرع بتهور عبر منعطف خطير، وتترنح يميناً ويساراً، قبل أن تنقلب وترتفع إطاراتها الأمامية في الهواء على جانب الطريق، وتهوي إلى أسفل المنحدر أمام عينيه. حدث كل شيء بلمح البصر... كانت السيارة تتدحرج وتتقلبة، تلفظ في كل منقلب بعضاً من ركابها الذين تطاير بعضهم في

الهواء مع أشلائها الحديدية، قبل أن يستقر هيكلها كتلة حديدية مشوهة في أسفل الجبل. كان المشهد مهولاً...

أظلمت الدنيا في عين الشيخ راجح وقد تذكر "علي"... ودون أن يحس بنفسه خرج من سيارته وبدأ يركض بهلع وقد زاغ عقله، هابطاً المنحدر السحيق باتجاه هيكل السيارة المحطمة زاعقاً بجنون: عليييي...!

56

كان نهاراً طويلاً يكاد لا ينتهي. تم جمع ركاب السيارة من كل منحدر وإسعافهم كيفما اتفق، ليتم نقل معظمهم إلى مستشفى "جبلة المعمداني"، بمن فيهم الشيخ راجح، الذي وجدوه مغمى عليه على بعد أمتار من هيكل السيارة المحطمة. تحولت فرحة الأهالي بالطريق الجديدة إلى نكبة بكل ما تعنيه الكلمة! فما هي إلا ساعات حتى توفي خمسة من ضحايا الحادثة في المستشفى، كان آخرهم "علي"، الذي لفظ أنفاسه الأخيرة في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر.

في نفس هذا اليوم والساعة، قُتل "إبراهيم الحمدي" بطلقات مسدس في بيت بصافية صنعاء. كان أكثر رؤساء اليمن شعبية مدعواً لوليمة غداء ذهب إليها كعادته من دون ترتيبات أمنية. بعد مرور عقود من الزمن، ما يزال اليمنيون يجهلون الحقيقة كاملة، لكنهم يدركون تماماً أنهم خسروا بمقتله واحدة من أندر الفرص التاريخية لنهوض اليمن عبر قرون عديدة.

الآخرون، الناجون من الموت، تنوعت إصاباتهم ما بين كسور وجروح خطيرة، أهونها تلك التي أصيب بها العمدة: شرخ بسيط في عظام قدمه اليمنى، وبعض الخدوش على وجهه. أما "كريم" فقد أصيب بكسر في رجله اليسرى وخلع بسيط في كتفه الأيمن. بالطبع لسنا بحاجة إلى ذكر "الشرجبي"، وكيل الشيخ العارض، الذي كعادته لم يصب بأي أذى على الإطلاق، وكان أول من لملم نفسه، بعد أن قذفت به السيارة في أول منقلب، وبدأ يساعد في إسعاف المصابين.

لم يصل خبر الحادثة إلى القرية إلا بعد ساعات. ولفترة طويلة لم يمتلك أحد من أبناء القرية الجرأة لإخبار "أمي حليمة" بوفاة ابنها الوحيد. حين علمتْ ظلتْ صامتة، غير مصدقة، ولم تستفق من صدمة الفاجعة المُرة إلا في صباح اليوم التالي، عندما شيعت "ذي المجمرة"، بغياب كثير من رجالها الجرحى، جثامين نصيبها من الموتى: رجلين وطفل، أُحضرت جثامينهم باكراً من ثلاجة المستشفى، وسط نواح وعويل النسوة، بينما كان الشيخ راجح ما يزال في المستشفى في غيبوبة طويلة، بعد أن عرف بمصير ابنه "علي"...

كانت السيارة قد لفظت من أحشائها معظم ركابها، قبل أن يستقر هيكلها الحديدي في أسفل الجبل، محتضناً جسدين صغيرين تكوما بعضهما فوق بعض... مازال "كريم" يتذكر

كيف أفاق من غيبوبته على يدين تسحبان جسده، الذي لم يعد يشعر به، من فوق جسد "علي" المغمى عليه، وكيف قامت تلك اليدان بأخذ جسد "علي" صاعدتين به منحدر الجبل، وصوت "الشرجبي" المبحوح يصرخ مكرراً: "علي ابن الشيخ معي... أغيثونا...!". وما هي إلا لحظات، حاول أن يحتفظ خلالها بوعيه، حتى بدأ "كريم" يسمع هرجاً وصياحاً يتعالى في الجوار... حاول أن يصرخ؛ لكنه لم يستطع... "لقد رآني الشرجبي وسوف يعودون لأخذي"...

طمأن نفسه قبل أن يغمى عليه مرة أخرى ليستيقظ هذه المرة وقد أخذت الشمس في المغيب. كان الهدوء يخيم على المكان، ولم يكن يشعر بأي ألم... زحف بجسده خارجاً من هيكل السيارة، الذي كان يلمع كنجم بعيد في مجرة مقفرة... جال ببصره وأدرك أنه كان وحيداً... كان الجمع قد تفرق، ولكثرة المصابين لم ينتبه أحد لعدم وجوده...

حاول أن يتحرك أكثر؛ لكن قواه خانته وأغمي عليه مجدداً ولم يستيقظ إلا على سرير المستشفى في الليل؛ بعد أن وجده أحد الرعاة مرَّ بقطيعه بالقرب من هيكل السيارة وقد شده الفضول لرؤيتها...

لا بد وأن وقع الخبر على "أمي حليمة" كان فظيعاً. لكن الجميع أكد أنها كانت رابطة الجأش بشكل بدا للبعض مبالغاً فيه... كبتت دموعها وآلامها ولم تتفوه بكلمة واحدة... كانت تكتفي

بهز رأسها، محدقة بعينين ساكنتين لا تقولان شيئاً... لا بد أن الصدمة كانت أكبر من أن يتحملها قلبها المكلوم...

كان الجميع قد اتفق على ألا يتأخروا في دفن الموتى، إكراماً لهم حسب المعتقد السائد. وما إن انتهت مراسم الدفن حتى توجهت "أمي حليمة" إلى المستشفى لترافق زوجها، الذي لم يفق من غيبوبته إلا بعد ظهر اليوم التالي، مشوش الذهن، منهك القوى، بعد أن أصيب بالسكري وبأمراض أخرى ستلازمه حتى وفاته... حينها فقط أجهشت ببكاء مرّ ورمت برأسها على صدره قبل أن تنهار قواها وتسقط من بين يديه مغشياً عليها!

﴿57﴾

بسم الله

والدي الأجل،

أكتب لكم هذا على عجل... الأستاذ بأمان. كنت قد وجدته في الفندق. مازلت لا أدري كيف وصلت إلى هناك!... لعل ساعتي لم تحن بعد، فالقناصة كانوا ما يزالون على أسطح العمارات والجثث تملأ الشوارع، وكل شيء في عدن كان له رائحة الموت... وجدته في الصالة الداخلية للمطعم، في نفس المكان الذي لقيته فيه قبل أسبوعين عندما أوصلت إليه رسالتك... كان معه آخرون لم أميزهم، خاصة وأنهم كانوا قد أشاحوا بوجوههم بعيداً، ربما احترازاً مني، أنا الهابط عليهم فجأة بهيئتي الشعثاء وهلعي المقلق!... هو أيضاً

فوجئ بوجودي في البداية، وقد ميزت في عينيه لوماً كبيراً لمجازفتي أكثر من شعوره بالامتنان لمجيئي... قال إنه سيعاتبك لإرسالك إياي في تلك الظروف، على الرغم من أنني أوضحت له أنني جئت من تلقاء نفسي... كان ضعيفاً ومنهكاً ويبدو أنه بقي لأيام من غير طعام... في الليل تحركنا بأمان نحو حي الشيخ عثمان، وبعد أن اطمأن على بعض من معارفه وأكل وجبة خفيفة هناك، واصلنا السير شمالاً. في إحدى القرى في عقّان ودعني بعد أن أعطاني مسدساً وبعض المصاريف، وسلمني هذه الرسالة التي كتبها لك (تجدونها طي هذا)... سأكون في القرية عندما تصلك هذه الرسالة بإذن الله... تحياتي وتقديري...

ك.

17 يناير 1986م

58

في مساء يوم حادثة انقلاب السيارة كتب الدكتور "جيم يونغ" في دفتر مذكراته، بخط يد "ويندميلي" جميل، ما يمكن أن يُترجم كالآتي:

الثلاثاء 11 أكتوبر 1977

لم يهطل المطر هذا الصباح؛ لكن الجو كان غائماً والرطوبة معتدلة نوعاً ما . . . وصل المهندس متأخراً كالعادة، ولم يبدأ عمله في إصلاح المولد الكهربائي إلا في التاسعة. قايد علي في الحديدة، لم يتصل، ولا أعرف ما إذا كان قد استطاع أن يكمل الأمر. شحنة اللقاحات وبعض المواد الأخرى ما تزال محجوزة في الميناء منذ أسبوع، وبمشيئة الرب، تصل إلينا سليمة ومكتملة. اتصلتُ تلفونياً بمدير المكتب الصحي، الذي كعادته أكد أن المسألة منتهية وأنهم يتابعون إدارة الميناء.

جورج ما زال يلح عليّ بالعودة. وصلتني رسالته هذا الصباح، ويبدو أنه لن يتوقف عن محاولة إقناعي بالعودة، خاصة وأنهم قد تدبروا أمر من سيحل محلي... أما سمانثا فلم تعد تكتب لي منذ فترة، وإني لأسأل الله أن تكون بخير.

لم يتسنَّ لي إكمال صلواتي في الظهيرة، ولم أتغدَّ جيداً اليوم، فما إن بدأنا بالأكل حتى سمعنا خبر مقتل الرئيس. شيء مؤسف حقاً! فقد كان شاباً طموحاً، وكانت سياساته في الطريق الصحيح للنهوض بهذا البلد الذي يفتقر إلى الكثير من مقومات الحياة المعاصرة. أتمنى ألا ينتج عن هذا ما يؤثر على وضعنا، فنحن في كفاية من أية تعقيدات إضافية...

لم يكن هذا فقط ما خبأه لنا هذا اليوم المشؤوم؛ إذ وصل في ذلك الوقت العديد من الجرحى في حادثة انقلاب سيارة. في البدء، وبينما كنا نستقبل الجرحى تباعاً، ظننت أنهم أصيبوا في حوادث متفرقة؛ لكن الجميع أكد أنها حادثة واحدة. وإنني

لأستغرب كيف كان كل أولئك المصابين على متن سيارة واحدة. كانت إصابات بعضهم خطيرة، وقد وصل اثنان منهم وقد فارقا الحياة، بينما كانت ثلاث حالات، بينها طفلٌ في الثالثة عشرة من العمر، في مرحلة حرجة، بسبب النزيف، الذي كان سبب وفاتهم لاحقاً. لم نستطع للأسف أن نفعل لهم شيئاً، ولم تسعفنا إمكانياتنا المتواضعة لإنقاذ أرواحهم!... هي مشيئة الرب!

الإصابات الأخرى كانت متنوعة ما بين كسور ورضوض وحالات إغماء. بذلنا جهداً كبيراً في إقناع الأهالي المرافقين للجرحى بمغادرة ردهات المستشفى التي اكتظت بهم. كنتُ قد لاحظت أمراً حيرني، فقد كانت بعض الجروح تبدو كطعنات بآلة حادة، كما لو كانت نتيجة شجار بالخناجر التي يلبسها معظمهم، وقد تحدثت بهذا الخصوص مع المندوب الأمني في المستشفى، الذي أبدى اهتماماً كافياً في البداية؛ غير أنه، بعد

أن قام بإجراءات التحقيق المعتادة حسب قوله، أكد لي أنها حادثة سير طبيعية وليس هناك أية شكوك بوجود دوافع جنائية. لم أقتنع تماماً؛ لكن بعد معاينة جميع المصابين والتحدث مع الأهالي الذين أسعفوهم أدركت أنه قد يكون من المحتمل أن تبدو الجروح على هذا النحو بسبب اصطدامها بهيكل السيارة الذي قيل لي إنه تحطم تماماً .

كان يوماً طويلاً ومتعباً، وقد اضطررنا إلى استدعاء من كان في إجازة من ممرضينا المحليين وبعض الأطباء من إب. لعل الرب أراد أن يمتحن إيماننا، وها هو يسبغ علينا رحمته التي لا تنقطع، فحالات الجرحى مستقرة (بمن فيها حالة الطفل الذي أُسعف إلينا متأخراً والذي قيل أنه كان في تلك السيارة المشؤومة نفسها) ولا يبدو أننا سنفقد المزيد من الأرواح. قبل أن آوي إلى فراشي اتصل قايد علي حاملاً أخباراً سارة

بخصوص اللقاحات والمواد الأخرى، مؤكداً أنها ستصل إلينا غداً إن شاء الله.

نسألك، يا رب، أن تستجيب للدعاء الخاشع الذي نرفعه إليك من أجل خلاص عبدك.

﴿59﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

والدي/ الشيخ راجح العارض... المبجل

تحية طيبة وبعد،،

أكتب لك هذا من تعز التي وصلتها بعد الظهر، ولم يصل أحد منهم حتى الآن... الأوضاع هنا هادئة والطريق مفتوحة، لهذا نتوقع وصولهم غداً صباحاً، وقد رتبنا أمور سفرهم فرادى، ولا أعتقد بوجود ما ينغص عليهم رحلتهم إلى عدن... نتابع بقلق آخر التطورات ويبدو أن اتفاق عَمان ذهب أدراج الرياح... التقيت بالأمس بعض شباب القرية الذين هربوا من معسكراتهم وأخبروني أن الوجوم والقلق كان مسيطراً على جميع الضباط... هل يعقل أن تنشب الحرب؟

ستكون كارثة الكوارث، فنحن لم ننعم بعد بالوحدة وها هي الأحداث تنذر بالشر من جديد! أرجو أن تعتنوا بأنفسكم!... هل يلزم أن آتي إليكم؟

المطر هطل بغزارة بالأمس وكاد السيل أن يجرف أمي تقية إلى حافة الشلال لولا ستر الله... العمدة يبلغك السلام، وما يزال حانقاً من عدم ردعكم للشرجبي الذي أثار القضية بدون سبب... بالمناسبة، شكوكي التي أخبرتكم عنها ما تزال قائمة بشأن السليان وعراكه المفتعل مع العمدة... سأحدثكم بالمزيد من التفاصيل التي اطلعت عليها مؤخراً حين نلتقي إن شاء الله.

خالص المودة والتقدير،،،

ولدكم وتلميذكم: كريم

14 مارس 1994م

60

كان "سليم" قد ملّ اللعب مع أقرانه من أطفال القرية، فاتجه وحيداً نحو سد القرية، القابع تحت "دار البخور" على حافة منحدر الشلال من الجهة الشرقية، ووجده ممتلئاً بالمياه المنسكبة من عين "الجوهرة". كانت المياه شبه صافية، ولم يكن هناك أحد سوى "عزيز"، الذي كان قد جفف نفسه بثيابه، التي يعتني بنظافتها كالعادة، بعد أن أكمل، فيما يبدو، حمّامه وتشمس فوق إحدى الصخور المجاورة، وهو ما أغرى "سليم" بخلع ملابسه واقتناص فرصة السباحة فيها لوحده، قبل أن يأتي الصبية الآخرون ويلوثون الماء بالطين المتراكم في القاع، أو قبل أن يأتي أحد المزارعين لنهيه عن السباحة، كما جرت العادة، مبرراً ذلك بخطورة السباحة فيه.

في اللحظة التي همّ فيها بالقفز من المكان المعتاد، تراءى له على امتداد صفحة مياه السد وجه رجل يبتسم!... أفزعه المشهد، وعندما تأكد له أنه لم يكن يحلم، التقط ملابسه من حافة السد وركض عارياً مرعوباً في الطريق الضيق نحو القرية. كان "عزيز" في ذلك الوقت يتقافز فرحاً وهو يدندن بكلمات غير مفهومة عندما اصطدم

به "سليم" من الخلف وهو ما يزال يركض بأقصى سرعته، تلاحقه لعنات "عزيز" الذي كاد أن يقع على الأرض قبل أن يصيح:

- تيز أومك... نيووك!

لم يكن "علي ناجي"، والد "سليم"، وجار العمدة، من أولئك الذين يكترثون كثيراً لمثل هذه الحكايات التي عادة ما يرجع بها الأطفال إلى آبائهم، لولا أن "سليم" ظل يرتجف كثيراً وهو يقص ما رآه عند السد... عندها صرخت الحاجة "تقية" في وجه ابنها، الذي كان ما يزال غير مصدق، فأخذ "علي ناجي" بيد ابنه بامتعاض وتوجه معه إلى السد، لكي يطمئنه بأن ما رآه لا يعدو أن يكون تخيلاً، وبأنه وغيره من أبناء القرية عادة ما يشاهدون مثل هذه الأوهام... عندما وصل "علي ناجي" إلى السد كاد أن يتجمد من الخوف! كان وجه "كريم" واضحاً على سطح الماء، عيناه تنظران إليه، ثم ما لبث أن رآه يبتسم له، قبل أن تتلاشى ملامحه ويختفي... بالكاد استعاد "علي ناجي" أنفاسه... فحمل ابنه في حضنه وركض عائداً إلى القرية. كان "عزيز" حينها واقفاً فوق إحدى الصخور، وعندما رأى "سليم" في حضن أبيه وهو يركض بفزع، طار فرحاً وصفق بيديه صائحاً بهما:

- نيووك... ها ها... نيووك!

عندما وصل "علي ناجي" إلى القرية لم يصدقه أحد... كانوا يعتقدون أنها خدعة اتفق عليها هو وابنه لإخافتهم، فقد كانت مثل هذه الحيل أمراً معتاداً فيما بينهم، خاصة وأن أولئك الذين عبروا الطريق بجانب السد للتو أكدوا أنهم لم يروا شيئاً...

قبيل الغروب في مقيل العمدة، عندما حكى البعض له ما حدث، ضحك العمدة كثيراً، وقال ساخراً:

- علي ناجي مجنون مثل أمه، وها هو ابنه قد أصيب بالجنون أيضاً! إنهم ذرية مجانين... صدقوني! أنا جارهم... يعني أعرفهم جيداً!

يضحك البعض، فيضيف العمدة بخبث:

- لقد نصحته ألا يشاهد "الستلت" كثيراً، فقد أتلف عقله...

- تقصد "الساتلايت" يا عمدة!

- نعم يا ملعون!... هذا الجهاز الذي يُحضر الجن إلى رؤوسكم كل ليلة!...

عندها وجد الأستاذ "حمزة الماسر"، خطيب الجامع، فرصته السانحة لممارسة هوايته المفضلة في الوعظ، فقاطع العمدة مؤيداً وموجهاً الحديث للحاضرين:

- قلنا لكم مراراً إن مشاهدته حرام!... حراام... تجلبون الآثام والمنكرات إلى بيوتكم كل يوم لكنكم لا تصدقون...!

التفت إليه العمدة وقد أغاظته المقاطعة، قائلاً بتخابث:

- لا تستغرب يا حمزة، فنحن في هذه القرية نصبر على منكرات وموبقات أكبر بكثير من هذا!...

فيسأله "حمزة" وقد تصنع الاهتمام:

- أي منكرات يا عمدة؟!

عندها يجيب العمدة بسرعة وقد توقع هذا السؤال:

- أنت وأمثالك المطاوعة يا ملعون...

يضحك الجميع، فيضيف العمدة مستدركاً، قبل أن يقاطعه أحدهم:

- ثم، بالله عليكم، هل تعتقدون أن كريم كان سيبتسم في وجه علي ناجي لو أنه رآه؟!... لا يمكن! يعني حتى الموتى لا يمكن أن يكونوا بهذه الحماقة... صدقوني! الشيء الوحيد الذي يمكن أن تقابل به علي ناجي هو أن تلعنه... نعم... يعني تلعنه!...

وعندها يزداد ضحك الجميع، حتى "علي ناجي" نفسه ضحك كثيراً عندما حكوا له صباح اليوم التالي ما قاله العمدة...

61

في الورقة الأخيرة قبل منتصف دفتر مذكراته، كتب الدكتور "جيم يونغ"، بخط يده الجميل، وبحروف أكبر هذه المرة، ما يمكن أن يُترجم كالآتي:

الجمعة 14 أكتوبر 1977

توقف المطر أخيراً؛ لكنني ما زلت أسمع صوت السيول الهادرة في الأسفل. . . لا بد أن أكتب طلباً لبعض المال لترميم الأسطح، فقد تسرب الماء في أكثر من مكان اليوم. كان يوماً اعتيادياً في المستشفى، وقد قررنا أن نبدأ حملة التحصين بداية الأسبوع. . . شعرت بمغص خفيف وقت الغداء؛ ربما لأنني لم أستطع منذ الأمس طرد هواجسي التي انشغلت عنها مؤقتاً بسبب زحمة العمل في اليومين السابقين حين استقبلنا ذلك العدد الهائل من ضحايا حادثة السيارة. مازلت أفكر كثيراً بتلك

العلامات التي وجدتها مرسومة بهيئة جراح في أسفل رقبة ذلك الصبي الذي مات في الحادثة. كم كان بودي لو كان بإمكاني أن ألتقط صورة لها ! . . . لكن يبدو أن ترددي في القيام بذلك كان مبرراً، فقد كان الوضع لا يسمح بذلك، إضافة إلى أنني كنت قد خشيت من أن يُساء فهم الأمر وتنتج عنه مشكلة محتملة. هل يعقل أن يكون الأمر برمته مصادفة؟ ! لو أن هذا الخاطر كان قد توارد إلى ذهني في حينه لأمعنت التدقيق فيها أكثر. . . يبدو أنه لا بد من مشاركة جورج هذه الهواجس، وسوف أكتب له، فقد يكون لديه رأي مفيد في هذا الأمر. . .

أيها الإله الذي يدير حياة الناس ويجدد أعمارهم، نستودعك بثقةٍ هذا الميت الذي نَبْكي شبابه، ونطلب إليك أن تُمتعه بالشباب الأبدي، في السعادة السماوية. بربنا يسوع المسيح ابنك.

62

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ العزيز الدكتور القدير/ عبد المنعم سالم الأكرم

تحية طيبة، ومودة صادقة...

وصلتني رسالتك الكريمة المحمّلة بمشاعرك النبيلة الصادقة...

والحمد لله على كل حال...

أخي الكريم، ليست صحتي، التي لم أستعدها بعد، هي ما يشغل بالي هذه الأيام، فأنا لم أعد أجد ما يستدعي القلق وقد خسرت ولدي الوحيد في غمضة عين... ولولا أن إرادة الحياة واستمرارها تظل هي الأعلى والأقوى رغماً عنا لما كنتُ أجد مبرراً لأشغل نفسي بأي شيء... لكنك ترى كيف انساقت أوضاع البلاد إلى مآلات ضبابية... لكأن ما حدث لي على

المستوى الشخصي من مآس وفواجع ما هو إلا نذير شؤم لفواجع أخرى قادمة على المستوى العام... فمقتل الشهيدين في صنعاء وعدن هو اغتيال لمسيرة الثورة، وانتصار لإرادة الشر دون شك، ومدخل لإمكانية حروب أهلية قادمة سيدفع الشعب اليمني بسببها ثمناً باهظاً، وهو ما ينبغي على الجميع العمل في هذه المرحلة الحرجة من أجل الحؤول دونه.

أما بالنسبة لوضعي فما يزال في علم الله، خاصة بعد أن رفضتُ العروض التي تقدمت بها القيادات الجديدة هنا وهناك بتعييني في إحدى سفاراتنا في الخارج أسوة بالآخرين، وهو التوجه الذي يرمي إلى إفراغ الساحة عن طريق هذا الإقصاء غير المباشر... ولا شك أن أحداث أكتوبر قد صعبّت الموقف كثيراً، وفتحت شهية الانتقامات، وبررت الكثير من الإجراءات التي ترمي إلى الاستحواذ على مفاصل الدولة

وتكريس قوى الولاءات الجديدة، الأمر الذي لم نكن نرغب بأن نصل إليه بعد كل تلك البشائر التي شهدناها . . .

والحديث، دون شك، طويل وذو شجون، ولا بد أن تتاح الفرصة لتبادله معكم في القريب العاجل، عند عودتي من السفر الذي قد يكون قريباً، لعمل بعض الفحوصات والعلاج، خاصة لمرض السكري الذي أصبت به عنوة، وذلك حسب الاتفاق مع الأستاذ، الذي ألتقيت به قبل أيام، والذي سعى لتوفير تذاكر السفر والمصروف. . . ويبدو أن هذا سيكون ملائماً في هذه الفترة للجميع، حتى ينقشع الضباب عن المشهد وتستقر التطورات المتلاحقة.

أرجو أن تبلغ تحياتي للإخوة خالد وعبد الرب. . . وسوف نتواصل قبل سفري إن شاء الله،

خالص مودتي وتقديري،، وقبلاتي للأولاد،،،

راجح سعيد

8 سبتمبر 1980م

"إذا كان الأمر كما يقولون فإلى الجحيم يا مُحيميد!".

العمدة

"هناك وجدتُ جسده وقد أصبح جثة هامدة فتعاظمت حيرتي وهزتني الهواجس: هل أقدمَ على ما كانت نفسي قد رفضته من الشكوك؟! كيف واتته الجرأة؟!".

الشيخ راجح العارض

الفصل السادس

﴿63﴾

كان العمدة قد فقد شهيته تماماً منذ الأمس، حين اختفى قبر "كريم" وأغمي عليه في المقبرة وسط هلع المحيطين به الذين تجمعوا حوله يحاولون إفاقته. عندما أفاق كان خائر القوى ولم يعد قادراً على المشي لأول مرة في حياته، فاضطروا إلى أن يحمله "السُلّيّان" على ظهره عائداً به إلى المنزل. في المنزل رفض العمدة بعناد الذهاب إلى المستشفى رغم إصرار أبنائه، مكتفياً بأخذ بعض المسكنات، ولهذا لم يعرف أحد سبب إغمائه، وإن كان الجميع يعرفون أن صحته كانت قد تدهورت في الشهور القليلة الماضية، بعد أن بدأ يشكو من اضطرابات السكري وضغط الدم.

في السنوات الأخيرة كان العمدة يرفض الذهاب إلى المستشفيات التي كان ينعتها بـ"دكاكين السموم"، والتي يديرها مجموعة من "قُطاع الطرق" المعروفين بين الناس بـ"الدكاترة". لم يكن العمدة يبالغ كثيراً، خاصة عندما تحولت مهنة الطب في اليمن منذ سنوات إلى واحد من أكثر أنواع التجارة ربحاً في البلاد، ولطالما

كان العمدة يستهجن الأطباء التجار، ويراهم أكثر خسة من اللصوص.

- قلت لكم لن أذهب يا ملاعين!... صدقوني...! لست مغفلاً بما فيه الكفاية للذهاب إليهم بملء إرادتي ليسمموني...
- لكن...!
- كلا... يعني صحيح أنني أب لحمير مثلكم؛ لكن ذيلي لم ينبت بعد!... صدقوني...! هل ترون لي ذيلاً؟! هه؟!... يا ملاعين!...
- حسناً... سنأخذك إلى مستشفى جبلة... ما رأيك؟
- ولا حتى إلى طيـز الحمار!... يعني لو كان النصارى ما يزالون هناك لذهبت... لكنكم قتلتموهم، نعم... وتريدون قتلي أيضاً!...
- لكن...!
- اخرسوا... قلت لكم كلا... يعني كلا!... سأموت على فراشي مطمئناً وبكرامتي، وليس على أيدي مجرمين أمثالكم يا ملاعين!

* * *

كان هذا بالأمس، أما اليوم فقد تدهورت صحة العمدة كثيراً، ولم يعد باستطاعته أن يشرب بسهولة بسبب جفاف حاد في حلقه أفقده القدرة على البلع والرغبة في الكلام. ومنذ الظهيرة بدا مشوش الفكر منعزلاً تحت بطانيته الأثيرة لا يفكر في شيء محدد، يستمع بوضوح لما يقوله زواره، بعينين شبه مغمضتين؛ لكن دون اهتمام ولا رغبة في مجاراتهم في الحديث. كان يراقب بهدوء البرودة التي سرت في أطرافه، وينظر إلى كفيه اللتين بدا لونهما آخذاً في الازرقان...

- اللعنة! هذه علامات النهاية دون شك!

حدّث نفسه... لكنه، على عكس ما كان يتوقع، لم يكن خائفاً من الموت، ولا من منظر القبر ودفنه تحت أكوام الصخور والتراب، بل كان متبرماً من عدم قدرته على النهوض وإسعاف نفسه بالذهاب إلى الحمام، مما اضطره إلى أن يتبول في "متفل" حرص على أن يظل دائماً بجواره، وألا تركله أقدام زائريه أو يعبث به "عزيز" الذي كان قد اتخذ مجلسه مبتسماً بجوار أبيه وقد أعجبه هذا الوضع الذي لم يعهده من قبل. حينها تمنى العمدة لو أنه كان ما يزال قادراً على التبول واقفاً كعادته تحت جدار بعيد أو شجرة وارفة الظلال، وتذكر جداله الذي كان يستمتع به مع أولئك الذين كانوا يفاجئونه معترضين:

- لا يجوز يا عمدة...!
- لا يجوز ماذا يا ملعون؟!
- أن تبول واقفاً!...

حينها يرد العمدة مجادلاً، وهو ما يزال يتبول، وقد التفت برأسه:

- وهل تتوقع أن أبول ممتداً على ظهري يا أخبل؟! هه؟! يعني...
- بل جلوساً يا عمدة كما يفعل الجميع!...
- تقصد كما تفعل النساء يا ملعون!... أما أنا فقد خلق الله لي هذا!...

يقولها مازحاً ويستدير بمكر نحو مخاطبه الذي يشيح بوجه باشمئزاز:

- يا عمدة عيب!... الله المستعان!...

فيجيب العمدة ضاحكاً:

- لماذا تستحي يا ملعون؟! هه؟! أليس معك مثله؟! أم تراك خنثى... يعني لا ذكر ولا أنثى؟! ها ها...

* * *

ارتسمتْ ابتسامة واهنة على شفتيه وهو يتذكر تلك المواقف، ثم بدأ يتأمل ويرقب بتركيز ما يطرأ عليه من تحولات ومضاعفات... لاحظ مثلاً أن تنفسه بدأ يصعب رويداً رويداً، مثيراً

في بعض الأحيان صوت حشرجة من صدره ذكّره بصوت قرقرة "مداعته" الأثيرة، وتخيل نفسه "مداعة" يتجاذب قصبتها زائروه، ويرتشفون منها أنفاساً عميقة، فانفرج ثغره عن ابتسامة ماكرة... فكر أن يطلب إحضار "مداعته" والتمتع بأنفاس أخيرة من تبغه المفضل؛ لكنه غيَّر رأيه، إذ كان قد فقد رغبته في التدخين، لهذا أغمض عينيه واستسلم لنوم مفاجئ كان أشبه بالإغماء.

﴿64﴾

بسمه تعالى، الخالق السلام الذي لا يَضرُّ مع أسمائه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، المحيي والمميت، الحي الذي لا يموت.

وصلني خطابك الكريم، وسعدت به أيما سعادة وأنا أستذكر وجهك في ثنايا السطور، فقد زاد شوقنا لك وانتظارنا للقياك. أما ما يكون من الأمر الذي ذكرت، والرؤى التي أرقتك، فاعلم أيدك الله أنني ما كنتُ مقدماً على أمر بهذه الأهمية إلا وقد راجعت نفسي مراراً. وقد علمتَ أن ولدي الوحيد غادر حياتنا الفانية إلى عالم الخلود، تاركاً في النفس ما ينغص العيش ويسلب العقل، وأن الصبر والاحتساب كانا زادي على تقبل الحياة التي مدها الله من عنده بأسرار البقاء والديمومة، بعد أن نفخ فيها من روحه التي لا تذبل ولا تموت.

وقد كتب الله لي أن أرعى هذا الصبي في كنفي كابن لي، وزرع في قلبي، وقلب زوجتي، من المحبة له ما عوضنا عن فقدان ولدي، وإني لأرى الأمر نتاج تدبيره العلي العظيم، فتوكلتُ على الله بعد أن استأنستْ نفسي ما عزمتُ عليه، وأخبرتكم به. وإني لأجد فيه مقدرة كبيرة، وهمة عالية، وله من صفاء جوهر النفس، وجودة القبول، وسرعة التصور، ما يؤهله لحمل ثقل الأمانة، ومواصلة الائتمان على حفظها . فإذا ما كان لك أعزك الله بعد هذا رأي فلن أتردد في تسليم الأمر لمن تشيروا علينا به. وإني لأسأل الله رب العرش العظيم أن يمدكم من لدنه بالصحة، وأن يبقي على ما تكرم به علينا من نعمه ظاهرة وباطنة، إنه على كل شيء قدير.

راجح بن سعيد

الخامس من ذي القعدة 1402هـ

65

لم يكن العمدة يعرف كم مرَّ عليه من الوقت عندما استيقظ من نومه، أو غيبوبته تلك. عرف من الضوء المنبعث من النافذة أنه وقت الأصيل. كان "عزيز" جالساً عند قدميه، مولياً له ظهره ومنهمكاً في العبث ببعض الأوراق. أحسَّ برغبة في الخروج من البيت، أو حتى إلى سطح المنزل؛ لكنه سرعان ما غير رأيه وقد شعر بوهن عظامه، وتذكر آلامه التي تعاظمت بعد رحلته المشؤومة بالأمس إلى "سمسرة المحرس"، الرحلة التي أصرَّ عليها رغم إعيائه الشديد بعد أن أغمي عليه في المقبرة.

العمدة لم يكن يدرك أيضاً، وهو يتأمل بمشقة هيئة بعض العناكب في إحدى زوايا سقف غرفته، أن حموضة دمه كانت قد ارتفعت، وأن بعض خلايا دماغه بدأت تموت بعد أن نقص عليها ما تحتاجه من أكسجين؛ لكنه كان ما يزال قادراً على سماع أبنائه بوضوح وهم يدخلون ويخرجون، وثغاء بعض الأغنام وهي تمر بجانب النافذة، وصوت ارتطام باب المنزل تفتحه وتغلقه الرياح. فكر بأبنائه متبرماً:

- ملاعين!... يعني لا يستطيعون حتى إغلاق الباب كما يجب!... لن يبقى شيء من هذا المنزل بعد رحيلي!...

همَّ بمناداتهم وتوبيخهم؛ لكنه أدرك كم أصبح الكلام صعباً، فحاول أن يشغل نفسه بأي شيء، كأن يتذكر مثلاً تلك الأسئلة التي سيلقيها عليه ملاكان (لم يتذكر اسميهما)، سينزلان في ضيافته ويخففان عليه وحشة الاختناق وحيداً في ظلمة القبر؛ تلك الأسئلة التي كان عادة ما يسخر منها؛ لكنه لم يستطع أن يتذكر ولا سؤالاً واحداً، فتنهد بحنق، وشعر لوهلة بضيق شديد. فكر أن يستعيد اطمئنانه بقراءة آيات من القرآن. كانت الآيات تتداخل وتهيم في مخيلته. قرر أن يقرأ أسهلها عليه:

اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يــ... يــ...

كان منهكاً ولم يستطع إكمالها... تنهد بضيق، ثم ما لبث أن حدّث نفسه متهكماً:

- اللعنة!... إذا كان الأمر كما يقولون فإلى الجحيم يا مُحيميد!

66

بسمه تعالى

الخالق السلام، المحي والمميت، السلام الحي الذي لا يموت

أكتب هذا بعد أن طال انتظاري لعودتك، وكنتُ، وما أزال، في أمسّ الحاجة إلى الحديث معك والجلوس بين يديك. ها هي الأقدار قد خطَّت مشيئته تعالى، فالحمد والثناء له وحده من يعلم حكمة الأهوال والفجائع التي ما كان لتخوفاتي ومحاذيري من قدرة على منع وقوعها. جاءني الخبر الجلل، الذي بلغكَ، في غفلة من اليقين، فتوجهتُ إلى القرية وقد عصفتْ بذهني الهواجس، وتعاظمت على صدري الآلام، وتكاثرت حول روحي الأسئلة. وصلتها ليلاً كئيباً، وكنتُ حريصاً على رؤية الحدث بعيني، لكأن العين العمياء قادرةٌ على فهم ما لم يستطع

القلب المشوش المرتاب من فهمه. هناك وجدتُ جسده وقد أصبح جثة هامدة، فتعاظمت حيرتي وهزتني الهواجس: هل أقدمَ على ما كانت نفسي قد رفضته من الشكوك؟! كيف واتته الجرأة؟! تملكتني الأوهام وأغواني الغضب من عدم بوحه لي بنيته تلك عن الإدراك البسيط بأنه ما كان ليبوح لي بشيء من الأمر خشية رفضي المؤكد، ورده عما عقد العزم عليه. كان احتشاد الأنام وتتابع الأحداث قد منعني من تهدئة نفسي الحائرة، والتأني في التفكير. ولم يكن لي بعد هذا بد من العودة إلى صنعاء محاولاً أن أصل إليك، وانتظار عودتك؛ لكن الأيام مرتْ سريعاً دون أن أعرف موعداً لرجوعك، وبات لزاماً عليّ أن أعود إلى القرية لحضور العاشور، تاركاً لك أعزك الله هذه الرسالة علها تصلك في أقرب وقت، مفوضاً الأمر كله بين يديك، راجياً جوابك في أسرع وقت.

اللهم يا مَن احتجبَ بنور ظهوره عن خلقه، وأشهدهم حقيقة وجوده بتجلي أفعاله، دُلّنا بك عليك، وأُوصلنا بفضلك إليك، وانقلنا من حيرة الوهم إلى حيرة الفهم، يا قُدّوس يا سلام!

راجح بن سعيد

67

في صباح اليوم التالي كانت صحة العمدة ما تزال في تدهور ملحوظ، ومرَّ وقت قصير توقف فيه دماغه عن العمل، فغاب في فضاءات سرمدية قبل أن تستيقظ مخيلته الذاوية بنشاطٍ غريب، مرسلةً صوراً شديدة الوضوح، كشريطٍ سينمائي غير مرتب لما تبقى من ذكرياته التي بدأت تمّحي في أرشيفه الخلوي: السماء ملبدة بالغيوم، وحبات الذرة تذروها رياح مباغتة... ظهر والده بأكتافه العريضة وهو يخرج من باب داره القديمة إلى ضوء "المجران"، ناهراً إياه عن اللحاق به... منعطفات جبلٍ وقرى تمرُّ بمحاذاة نافذة سيارة مسرعة... حفيفُ أوراق شجرة كافور بجذعها المائل الذي ستقتلعه الرياح بعد لحظات... صوت "أيوب طارش" وهو يغني: "أذكرك والليالي غامضات النجوم"... الشلال يهدر بسيلٍ "تعكري"... صوت ارتطام البَرَد على ساحة الجامع... عفونة أقدام بجانب رأسه في زنزانة مظلمة... مذاق خوخ بلدي... نسورٌ تحوم في السماء فوق جثة بقرة رميت على قارعة الطريق...

كان العمدة ما يزال طفلاً يركض مع أقرانه في طرقات القرية، فاردين أذرعهم في الهواء، عندما رأى لأول مرة في حياته النسور تحوم في السماء وتحط بأجنحتها الكبيرة على جثة ثور وضعها الأهالي فوق أكمة صغيرة، بعد أن نفق أثناء حراثة الأرض. كان منظر النسور مألوفاً في ذلك الزمان؛ لكنها لم تعد تُرى منذ فترة طويلة، بعد أن انتشر السلاح الناري في أيدي المواطنين، وأصبحت النسور والعقبان، مثلها مثل قطعان القرود التي كانت تهجم على المحاصيل الزراعية وتخيف الرعاة، هدفاً لرصاصات "الشُّرّاح"(33) المتهورة، وبدأت أعدادها تقل شيئاً فشيئاً، كغيرها من الحيوانات البرية، التي انقرض بعضها تماماً، حتى لتكاد رؤية ثعلب بري أمراً مدهشاً في هذه الأيام.

فكر العمدة بأسى: كم تغيرت الحياة في القرية منذ ذلك الزمن! بل كم تغيرت في السنوات القليلة الماضية!... لم تعد الأشياء ولا الأنفس نقية كما كانت... ولا حتى مذاق القات أو رائحة الورد البلدي... كل شيء تغير وازداد قتامة... الناس تباعدوا عن بعضهم، والأسرة الكبيرة التي كانوا يعيشون في كنفها في القرية صارت أسراً صغيرة متناحرة. حتى حين يجتمعون للصلاة في جامع القرية كانوا متفرقين...

---

(33) حراس المزارع.

ولم تعد ساحة القرية، كما في السابق، تكتظ بهم وبالشباب الذين بدؤوا يهجرون القرية كغيرهم، بعضهم إلى المدن القريبة التي تقع على الطريق الرئيسي، والبعض الآخر رحل بعيداً إلى شتى البقاع طلباً للرزق... غادروا بيوتهم، أرضهم، مدارسهم... تاركين الأرض والفلاحة لآبائهم، الذين شاخوا بسرعة، وبدؤوا يتناقصون يوماً بعد يوم... حتى ماء "الجوهرة" بدأ يقل بشكل ملحوظ، لأول مرة، بعد أن تكاثرت الآبار التي نخرت عظام الأرض بعشوائية من قبل الطامعين الذين لم يكترثوا باعتراض من تبقى من الأهالي، ولا بشكاواهم المتعددة، بعد أن خذلتهم الأجهزة الرسمية، المترعة بالفاسدين.

كان يشعر بالحزن على أشياء كثيرة اختفت، وعادات جميلة توقفت... على بساطة الأيام السعيدة التي كان الأهالي ينعمون بها... على المرح الذي اختفى من حياتهم لتحل مكانه قتامة بليدة... على الحقول الزراعية التي هُجر بعضها، وبُنيت في بعضها الآخر منازل قبيحة... على بهجة الرقص الجماعي أيام الأعياد بعدما اكتفى أبناء كل قرية بالصلاة في قراهم، ولم يعودوا يجتمعون في المصلى الكبير أسفل الشلال... على نقاء المروج والآكام والطرقات التي أصبحت مكسوة بكل ما خلق الله من أوساخ... على موت المواويل الزراعية التي كانت تردد صداها الجبال... على الأمطار التي شحت كثيراً... على مبنى "الولي" الذي تهدمت أجزاء من

قبته البيضاء بسبب الإهمال... على نساء القرية وقد اختفت البهجة من حياتهن مثلما اختفت وجوههن وراء النقاب الذي لم تفلت من قبضته المتوحشة حتى وجوه الفتيات الصغار... على العزلة والتوحش التي فرضها الأهالي على أنفسهم... على البلاد التي انتكست أوضاعها وتفشى فيها الفساد... على توقف شباب القرية عن لعب كرة القدم، وإفراطهم في تناول القات، بعد أن تحول ملعب كرة القدم الوحيد إلى مبانٍ حكومية غير مكتملة...

نقلته الذكرى إلى تلك الأيام التي كان يلبس فيها الفانلة الرياضية متقدماً صفوف المشجعين، ولعناته التي كان يقصفها بحنق شديد على اللاعبين، وركضه نحو حارس المرمى رافعاً عصاه كلما سجل الفريق الخصم هدفاً في مرمى فريق "ذي المجمرة" الخاسر دائماً...

ولكم كان يشعر بالأسى أيضاً عندما يعرف أن أحدهم قد انضم إلى قافلة الراحلين: أغلق باب بيته ورحل مع أهله عن القرية... لكنه كعادته لم يكن يُظهر شعوره هذا، بل كان يردد متهكماً:

- أخيراً غادر الملعون!... تستطيع القرية أن تتنفس الصعداء الآن!... صدقوني!... سنرقص فرحاً لهذا الحدث دون

شك!... وسنسأل الله أن يهدي الآخرين بالرحيل أيضاً، وألا يريهم يعني طريق العودة أبداً!...

يقولها وهو يضحك متصنعاً؛ لكنه سرعان ما يتوقف عن الضحك ممتعضاً، فلم يعد أبناء القرية يضحكون لكل ما يقوله كما في السابق... كانوا بالكاد يبتسمون بذهول...

68

قبل أشهر قليلة من مقتل الأطباء في مستشفى "جبلة المعمداني"، كتبت "مارتا" بخط يدها على ورقة ممزقة، وجِدتْ بقاياها مصادفة في أرشيف المستشفى، ما يمكن أن يكون مسودة لمذكراتها الشخصية، التي لا يعرف أحد مصيرها، وما يمكن أن يترجم كالتالي:

ملاحظة: ما تحته خط كان مشطوباً.

كنتُ مترددة في البداية؛ لكنني جازفت، خاصة مع تلك الحالات التي تبدو ميئوساً منها. . . بيل لم يؤيد الفكرة؛ رغم أن مارتي حاولت معي أن تقنعه أيضاً بأهمية المحاولة. . . ربما سأضطر إلى شرح المسألة برمتها له فهو ما يزال على اتصال بالدكتور يونغ، وقد ينفع هذا الأمر. . . كلما فكرت في ما كتبه جيم يتشوش عقلي. . . ربما يتوجب عليّ الذهاب بنفسي إلى

قمة الجبل لأتأكد من نقله للعلامات بشكل دقيق وإرسالها صورها إلى سمائنا التي لا بد أن يكون لها رأي مهم... لا أشعر حقاً بأن الأمر... أحاول ألا أفكر في الأمر بهذه الطريقة، وقد يكون لتخوفات بيل ما يبررها، لهذا أرى من الحكمة التفكير في الأمر بتريث، وعدم ترك الهواجس التي...

69

كانت الصور ما تزال تسترسل بهدوء وصفاء في ذهن العمدة المحتضر... كان قد استسلم بلذة لتلك المشاهد من الذكريات التي هطلت عليه كمطرٍ صيفي طال انتظاره، مؤمناً بأن هذا كان أفضل عزاء له وهو يعيش آخر لحظاته قبل أن تنطفئ شمعة حياته إلى الأبد. لم يمانع حينها لو انتهت حياته بهذه الطريقة، لهذا كان يحاول التركيز على ما ترسمه مخيلته الذاوية باستمتاع كبير: ثور هائج في أزقة القرية الضيقة، بناقوسه المزعج... عشرات الوجوه في مقيله الذي يعج بالدخان وبالأحاديث العشوائية... "عزيز" يبكي متألماً من مغص حاد... رائحة فطيرة بطاطا ساخنة... تربة حقله وهي تتقلب في مواسم الحراثة... طعم حلوى بيضاء في دكان صغير مظلم... صفير رصاص فوق رأسه في إحدى الحروب البعيدة... مذاق قات "مُعلي" خال من المبيدات السامة... صوته الذي بدا غريباً وهو ينبعث من ميكرفون الجامع... أزهار شجرة رمان تتساقط وتجرفها الرياح... وجه ممثل مصري في أحد المسلسلات التلفزيونية... صوت "المرشدي" يغني: "يا مكحل عيوني بالسهر"... انعكاس أشعة

الشمس على حبات البَرَد المتكومة فوق أكمة بعيدة... "أبو ثور" المجنون يبتسم ببلاهة محببة، بلحيته الكثة المصبوغة بالحناء، وملابسه العسكرية الرثة، وخوذته الحديدية المثقوبة، قابضاً بيده على هوائي تلفزيون مكسور كرمحٍ أكله الصدأ...

كان لمنطقتنا مجانين شتى، يتناوب ظهورهم عبر الحقب والأزمان؛ لكنهم لم يجتمعوا في زمن واحد أبداً، كما لو كان هناك نوعٌ من الاتفاق فيما بينهم، فما يكاد يموت أحدهم، أو يختفي فجأة، حتى تبدأ دورة حياة مجنون جديد. جُلهم كان مسالماً، بل لا تنقص بعضهم روح الفكاهة، ومع ذلك لم يسلم بعضهم من تقييد أرجلهم بالقيود الحديدية، خوفاً من أن يلحقوا الأذى بالآخرين، وخاصة الأطفال، أو من كيهم بـ"المياسيم" محاولة من أهاليهم لعلاجهم من المسّ الذي أصابهم حسب اعتقادهم.

في بداية عهدهم بالجنون، كانوا يختفون عن الأنظار لأسابيع، يعتزلون بعيداً عن القرى ويسكنون الجروف المنحوتة في الصخر في أعالي قمم التعكر، هناك حيث يدّعي البعض أن الكاهن السبئي "سُطيح" قد نحتها بيديه وأن شبح "المفضل بن أبي البركات" يظهر في وقت الغروب راكباً فرساً بيضاء تقفز بخفة متجهةً نحو الغرب التهامي.

عادة ما كانت تستر أجسادهم ملابس محتشمة يتبرع بها الأهالي، الذين ألفوهم وتعاطوا معهم بشكل ودي ولائق. كان لكل مجنون عاداته الخاصة، وطريقته المميزة في الحديث والتصرف، ومكان محدد للسكن، وإن كان أكثرهم قد جعل من أطلال "سمسرة المحرس" مقراً شبه دائم لهم، يأوون إليه قبيل العِشاء، وينطلقون منه قبل أول شعاع للفجر. كانوا من قرى مختلفة، لا يسمحون لأي مجنون آخر من خارج المنطقة بمزاحمتهم في أسواقها، إذ يتم طرده بشكل من الإقناع الخالي من العنف. كان لقرية "ذي المجمرة"، على الرغم من قلة سكانها، النصيب الأكبر من عدد المجانين؛ إذ إنها أنتجت لوحدها خلال السبعين عاماً الماضية أربعة مجانين هاموا في القرى والحقول، ومسحت أقدامهم ذهاباً وإياباً كل شبر من المنطقة تقريباً. عندما كان يُطرح هذا الموضوع على العمدة لمضايقته كان يتعمد أن يصمت قليلاً كما لو كان يعدّهم في ذهنه، قبل أن يهز رأسه نافياً ويقول:

- كلا.. لم يكونوا أربعة، بل أكثر بقليل، يعني حوالي تسعة... نعم... تسعة لا أكثر...

وحين يبدأ أحد أهالي القرية بالاعتراض، ويهم بمجادلته وتعداد أسمائهم، كان يستدرك بمكر قائلاً:

- يا ملعون!... بالطبع أنا لا أقصد المجانين، بل يعني عدد العقلاء في هذه القرية...

﴿70﴾

توقف شريط الصور فجأة عندما تهادى إلى سمعه صوت أحد أبنائه مرحباً بأحد الزوار...

- من عساه يكون هذا الملعون؟! اللعنة! يعني لن يتركوني أموت بهدوء... الملاعين!...

حدث نفسه متذمراً، متجاهلاً كلمات الزائر الذي كان يثرثر بكلام لم يكترث به، وظل مغمض العينين عله يستعيد شريط ذكرياته التي بدأت تعود إلى ذهنه المنهك رويداً رويداً... فجأة قفز إلى مخيلته وجه مشعوذ مُسن... وتذكر كيف أخذه الشيخ راجح في الصباح الباكر، بعد أيام من موت "كريم"، وتوجها جنوباً إلى مدينة "الجَنَد"... كان العمدة قد فهم في البدء أن الشيخ راجح أراد أن يزور جامعها المشهور لرؤية أحد الفقهاء هناك، ودفع بعض النذور، أو ربما لأداء صلاة الاستخارة فيه، حسب ما جرت العادة عند الأهالي... لكنه فوجئ بأنهم انعطفوا بعيداً عن الجامع، وتوقفوا عند بيت شبه مهجور أصرّ على دخوله بمفرده...

تقع مدينة "الجَنَد" إلى الشمال الشرقي من مدينة تعز، وكانت قبل عقود من أهم المخاليف اليمنية، وفيها يقع الجامع الشهير الذي يعتقد أن "معاذ بن جبل" الأنصاري أمر ببنائه في العام العاشر للهجرة حين بعثه الرسول إلى اليمن ليعلم أهلها أمور وأحكام الدين الجديد، ليصبح أول مسجد في اليمن وليحمل اسم ذلك الصحابي... يذكر المؤرخون أن بناء الجامع قد أعيد على يد القائد "الحسين بن سلامة"، ثم جدده الأمير "المفضل بن أبي البركات" في عهد الدولة الصليحية. تعرض الجامع لحريق هائل عام 543هـ عندما هاجم "الجَنَد" وحاصرها "المهدي بن علي"، صاحب "زبيد"، الذي قتل العديد من أهالي المدينة رمياً في بئر الجامع، قبل أن يعاد بناؤه من جديد بأمر من السلطان "طغتكين بن أيوب" عام 603هـ؛ لكن أعمال التوسعة الكبرى والنهائية للجامع قام بها السلطان الرسولي "الأشرف بن إسماعيل"، الذي أمر أيضاً ببناء سور للمدينة، قبل أن ينتهي كل ذلك إلى أطلال ما تزال معالمها البسيطة ظاهرة حتى اليوم.

بعد ربع ساعة، خرج الشيخ راجح برفقة ذلك المُسن غريب الأطوار، الذي توجه إلى العمدة قبل أن يباغته ويمسك بكفيه مقلباً إياهما ويهذي بكلام غريب لم يفهمه العمدة... كان وجهه مألوفاً؛ لكن العمدة، الذي لم يستطع أن يتذكر أين رآه من قبل، كان قد

مقته، وما هي إلا لحظات حتى نفد صبره بعد أن طال هذيان هذا المشعوذ، فسحب كفيه متذمراً وأشاح بوجهه وبدأت اللعنات تنطلق من لسانه.

في طريق العودة ظلَ العمدة يحلف بأن ذلك المُسن هو مسخٌ خليطٌ لمجانين المنطقة، وأن له فم "أبو ثور" بلحيته الشعثاء، وعيني "طبيزان" اللامعتين وصوت "قوبان" المتخم بصدى الكهوف...

- من هذا المشعوذ الملعون؟!
- ليس مشعوذاً!...
- إذاً ماذا؟!
- ...
- هه؟!... لماذا لا ترد؟!... ولماذا ذهبت إليه؟! قل لي!
- ...
- لا ترد!... هه؟!... يعني لا يهم، فأنت في طريقك إلى الجنون دون شك، ولا بد أنك ستصبح مثل صاحبك هذا في القريب العاجل... صدقني!

لكن الشيخ راجح كان منشغل البال، وظل سارحاً مع صوت مسجل السيارة الذي كان يصدح في ذلك الوقت بصوت "أم كلثوم": "تقاربتْ يا ربٌ ما بيننا..." ولم يتجاوب مع العمدة الذي ظلَّ يمطره باللعنات ويلح عليه بالأسئلة دون جدوى...

كان "أبو ثور"، أحد أشهر مجانين المنطقة، قد جعل من ملابسه العسكرية المعلق عليها بعض النياشين المهترئة وخوذته، التي لا يعرف أحد كيف حصل عليها، زياً رسمياً لا يغيره أبداً... يطلق بين الحين والآخر ألفاظاً بذيئة مضحكة جعلته المجنون المفضل لدى العمدة، الذي كان ينعته بأعقل إنسان في القرية، ولا يبخل عليه بما يحتاجه من طعام أو سجائر أو نقود، بل ولا يمانع في مشاطرته "مداعته" الأثيرة وتبادل الحديث معه في شتى المواضيع. كان "أبو ثور" بصحة جيدة دائماً، مستأثراً بأطول فترة جنون على الإطلاق، ولم ينافسه في ذلك إلا "طبيزان"، الذي عاش مجنوناً لأكثر من عشرة أعوام، والذي هام خلالها في القرى والشعاب، يأكل الزجاج أمام إعجاب ناظريه، جاعلاً من مبنى "الولي" مقراً ليلياً يبيت فيه قبل أن يغادره مع أول خيوط الفجر. كان بشوشاً لا تفارق الابتسامة شفتيه، ولا يبالي بممازحات الأهالي؛ غير أنه إذا ما ضايقه أحدهم أكثر من اللازم يقف أمام بيته ليلاً ويصيح دون توقف حتى ساعات متأخرة؛ عقاباً له.

"قوبان" كان أيضاً مجنوناً شهيراً، انطلق حراً بعد سنوات ظل فيها مقيداً في إحدى البرك التي سقفت بألواح من الزنك لتقيه أشعة الشمس وقطرات المطر. كان ذا صوت جهوري له صدى خفيف، كما لو كان يتحدث عبر

مايكروفون صغير كالذي يستخدمه الباعة في الأسواق الشعبية. كان عدوانياً بعض الشيء؛ لكن طباعه لانت كثيراً بعد أن تحرر من سجنه القاسي، تحت لوم الأهالي وضغطهم المستمر على أسرته.

كما جرت العادة، لا يعرف أحد من أطلق عليهم هذه الأسماء، أو يتذكر أسماءهم الحقيقية، على الرغم من أن بعضهم كانوا من أُسر معروفة، لهم آباء وإخوة، بل وفي بعض الأحيان زوجات وأبناء أيضاً.

كان جُل المجانين المعروفين من الذكور، هذا إذا ما استثنينا عدداً محدوداً من الإناث، مثل العجوز "عاتكة العمياء" التي فقدت صوابها، بعد نظرها، عندما بلغت عامها السبعين وبدأت تهذي حتى ماتت وحيدة في منزلها، و"هايلة" التي جُنّت في منتصف عمرها بعد فترة قصيرة من تحايل أبناء عمها عليها واستيلائهم على أراضيها الزراعية التي ورثتها عن أبيها. ظلت محبوسة في بيتها أعواماً طويلة قبل أن تفر بعيداً نحو الجنوب، وتصدمها بعد فترة وجيزة سيارة مسرعة في الطريق العام قرب مدينة "الجَنَد" وترديها جثة هامدة.

ومع ذلك، لا يتذكر أحد ظهوراً علنياً لمجنونة في أي فترة من الفترات. البعض يحكي أنه قد تم قتل مجنونة أو اثنتين في الماضي خوفاً من العار؛ لكن هذه الحكاية المبالغ فيها لم

تستند إلى أية براهين، ولم يصدقها أحد، واعتبرت كغيرها من الحكايات المختلقة التي يتوارثها أهالي القرية، لا لشيء إلا لملء أوقات فراغهم، وما أكثرها!

71

كان العمدة ما يزال منسجماً، متغلباً على آلام صدره الخاوي، وهو يتذكر ذلك المشعوذ المقيت وتلك الرحلة العجيبة التي سرعان ما أدرك، بعد أيام من القيام بها، أنها كانت وراء تلك المهمة الغريبة التي كلفه بها لاحقاً الشيخ راجح. كان صباحاً غائماً عندما استدعاه الشيخ راجح كعادته ليشاطره وجبة الإفطار تحت ظلال شجرة "الطولقة" العملاقة، والتي عادة ما كانت تحتوي على أكلاته المحببة من "القطيب"(34) الطازج وخبز "الملوَّح" الساخن المدهون بالسمن البلدي.

بعد أن أكملا وجبة الإفطار وارتشفا كوبين من الشاي، قام الشيخ راجح بتسليمه حقيبة جلدية عتيقة وطلب منه أن يدفنها في إحدى زوايا "سمسرة المحرس"، بعد أن أوصاه بالسرية التامة وكتمان الأمر تماماً. حينها اعتقد العمدة أن الشيخ راجح قد أصيب حقاً بلوثة ما، فبعد رحلته غريبة الأطوار تلك ها هو يطلب منه دفن حقيبة! لكنه تحت إصرار رفيق دربه نفذ الأمر كما طُلب منه. كيف

---

(34) اللبن الرائب (الزبادي).

فاتته مثل هذه التفاصيل؟! ولماذا لم يسأل لاحقاً الشيخ راجح عن أمر الحقيبة، ونسي الأمر تماماً وكأنه لم يكن؟! لا بد أنها تعويذات ذلك المشعوذ الملعون!

تململ في رقدته وغيَّر بصعوبة من وضع جسده المنهك، وتناهى إلى سمعه صوت ذلك الزائر الذي كان ما يزال يثرثر بأدعية متنوعة...

- يا إلهي!... الملعون ما يزال هنا! يعني ربما قد نسى أن له منزلاً يعود إليه!

حدث نفسه، وتمنى لو كان بمقدوره أن يطرده؛ لكنه قرر بدلاً عن ذلك أن يشغل نفسه هذه المرة بمراقبة أدق التفاصيل التي كانت تحدث داخل جسمه الذاوي: خلاياه التي انكمشت إلى الداخل أكثر وأكثر، دمه الحمضي وهو يفسد كل شيء في طريقه، رئتاه تلهثان كإسفنجتين مبتلتين، عضلات قلبه الكبير وهي تستعد للتوقف نهائياً بعد ثلاثة وسبعين عاماً من العمل المتواصل ليل نهار، أعضاؤه المنهكة وهي تتراسل فيما بينها بإشارات عصبية تهيئة للنهاية الوشيكة. لم يكن يشعر بأي ألم من أي نوع؛ لكنه كان قد أدرك أن كل شيء كان يسير بلا هوادة نحو النهاية.

عندما استطاع أن يدرك أن زائره قد غادر المكان، بدأ في محاولة أخيرة لاستدعاء ذكرياته التي أصبح تواترها تسليته الأخيرة. كان "عزيز" واقفاً بجانبه مبتسماً يهذر بشيء ما وقد احتضن شيئاً لم

يستطع العمدة تمييزه. وبدأ شريط الذكريات بالتحرك من جديد. تذكر رحلته التي أنهكته قبل يومين إلى "سمسرة المحرس"، واختفاء تلك الحقيبة الجلدية التي دفنها بيديه في تلك الزاوية. كان قد أعتقد حينها أنها سُرِقتْ من قبل اللصوص؛ لكنه الآن بدأ يفكر في أمر ما... ولوهلة تذكر "عزيز" الذي كان بجواره بالأمس يعبث ببعض الأوراق التي كان يخرجها من حقيبة جلدية... "حقيبة جلدية؟!"... استدرك العمدة الأمر وشعر بهلع كما لو قُذف حجر في بطنه... "هل يعقل أن تكون...؟!" حاول العمدة أن ينهض؛ لكن جسمه لم يستجب... كان كمن يحاول أن يفيق من كابوس دون جدوى... كان "عزيز" قد غادر الغرفة للتو...

وما هي إلا لحظات حتى بدأت مخيلة العمدة بتحريك شريط الصور من جديد: ظله المرسوم على تراب الطرقات في ظهيرة ذلك اليوم الذي قرر أن يتمشى فيه وحيداً عندما جاءه "الشرجبي"، الملعون، وهو يلهث مخبراً إياه بمقتل "كريم"... جثة "كريم" ملقاة بجانب النافذة، مضرجة بالدماء...

لم تتغير الصورة هذه المرة، بل ظلت ثابتة وتزداد وضوحاً، حتى أنه استطاع أن ينقّل بصره في أرجاء الغرفة قبل أن يمعن النظر نحو الجثة، وهو الأمر الذي لم يستطع فعله ذلك اليوم... كان وجه "كريم" هادئاً، كأنه يغط في نوم لذيذ. وكانت الجدران ممتلئة

بأشكال غريبة رسمها "كريم" بكفيه المخضبتين بالدماء... أمعن أكثر في هذه الأشكال وقد بدأت تتحرك بشكل لولبي على الجدران، ورويداً رويدا بدأت ملامحها تتضح أكثر، وعندما توقفت عن التحرك كان قد ارتسم في الجدار ملامح شيء شهق له العمدة وارتعب كثيراً.

خاف أن تضيع منه هذه الصورة، وخرجت من صدره المتحشرج زفرة مؤلمة وقد أدرك كل شيء... حدث نفسه بحسرة:

- لا بد أن راجح كان يعرف بالأمر دون شك!... عرفت يومها أنه كان يخفي شيئاً... يعني الملعون... لم يأتمن على أسراره أحداً، ولا حتى أنا!... لكن هل كان ذلك ممكناً حقاً؟!... أم أنني بدأت أهذي؟!

فكر بيأس وقد أدرك أنه فقد القدرة على النطق:

- قد تكون رحمة بنت الملعون علي ناجي على حق!... مخبولة هي بالطبع مثل أبيها وجدتها الحمقاء؛ لكن ربما كانت محقة!... يعني هل التقطت زينب صوراً للجدار؟!... ومن هي زينب هذه؟! وكيف عرفَتْ بالأمر؟! ها أنا أيضاً أصبحت مخبولاً مثلهم وما زلت أسميها زينب!... كلا... كلا...!

تمتم في نفسه وقد ارتسمت ابتسامة ساخرة أخيرة على شفتيه المزرقتين:

- الملعونة لم تكن أميرة من "حراز" كما ظننت!... وبالتأكيد لم تكن زينب... لقد كانت...

حاول أن يتذكر وجهها الذي طالما تغزل به، وشهق رعباً:

- يعني لا يمكن أن يُعقل هذا؟!

حاول أن يفتح عينيه؛ لكنه لم يستطع، وما هي إلا لحظات حتى دخل في غيبوبة أخيرة.

72

تختبئ الأماكنُ والأزمنةُ في كهوفِ معطفٍ شتويٍّ مبتلٍّ، يتدثرُ فيه الماضي، وتتوارى في ثناياه الحكاياتُ والتفاصيل... يختفي بعضُها ويظهرُ بعضها الآخرُ دونَ إرادةٍ منا. لكأنَّ الذاكرةَ وعاءٌ مملوءٌ بأشياء كثيرة؛ لكننا لا نرى سوى ما يطفو على سطحهِ، أما ما غاصَ في قعرهِ فهو لها وحدها، لا تشاركهُ أحداً إلا من أرادَ المجازفةَ والغوصَ في قعرِ الوعاء، دونَ أن يعرفَ أهميةَ ما غاصَ من أجلِهِ، ولا إمكانيةَ أن يطفو مرةً أخرى على السطح...

* * *

أعرف أن ما رويته لكم ليس كل شيء، ولا يرسم إلا لوحة مليئة بالفراغات والتجاويف، وأن تفاصيل كثيرة ضاعت في قاع وعاء الذاكرة، ربما كان بعضها أكثر أهمية مما طفا على سطح الوعاء. لكن من قال إنني أختلف كثيراً عن أبناء قريتنا، وأنني لم أرث معهم طباعهم العنيدة المتشبثة بالنسيان؟! النسيان الذي ربما كانوا بحاجة إليه كي لا يضيعوا في لجة التفاصيل المرهقة والمستعصية على

الفهم... لعله كان ملاذهم الوحيد الذي يعصمهم من أثقال حياة كانت في أحيان كثيرة قاسية وموحشة!

لكن أليس هذا هو ما يتبقى من الحياة، التي عادة ما تُختزل في آخر الأمر إلى ذرات رمال تعصف بها رياح الذاكرة في اتجاهات غير محددة، لتشكل لوحة متعددة المشاهد والألوان... لوحة تظل رغم كل شيء ناقصة، وفي أحيان كثيرة غير متجانسة، مثل لوحتي التي حاولت أن أرسمها لكم عن قرانا الصغيرة التي تربض في سفح جبل التعكر، عن ناسها، وحكاياتها التي طواها النسيان؟!

أنظر إلى التفاصيل والأسئلة التي غاصت في قاع الوعاء، وأجدني أسائل نفسي: ماذا عساني أقول لكم أكثر مما قلته؟! وهل أكتفي بإخباركم بما لم يعرفه البعض من التفاصيل فقط؟! أم عليّ أن أشاطركم أيضاً ما يزخر به قاع الوعاء من الأسئلة التي ما تزال بدون إجابات، والتي يرمز إليها ذلك اللون الرمادي المنتشر كبقع مرض جلدي في أرجاء لوحتي الناقصة؟!

هل أخبركم مثلاً أن العملة كان في لحظاته الأخيرة قد وجد ملامح إجابات كانت الأكثر إقناعاً للأسئلة التي حيرته طويلاً، وحيرت الآخرين، وأنه، على الرغم من ذلك، لم يكن يعرف أن الشكل الهندسي الذي رسمته دماء "كريم" على الجدران كان قد رسمه العشب الذي نبت بسرعة مكان قبره الذي اختفى في نفس

اليوم الذي اختفت فيه الحقيبة الجلدية التي دفنها في "سمسرة المحرس"؟! لكن حتى لو افترضنا أن نظره كان يسمح له برؤية ما رسمه العشب بوضوح، وأنه استطاع أن يصل إلى هذه النتيجة، هل كان ليعرف أن الشكل نفسه كان مرسوماً أيضاً على الجدار الداخلي لأحد المدافن القديمة في قمة جبل التعكر، بهيئة كفوف محفورة في الصخر نحتها بعناية بالغة الراهب السبئي سُطيح منذ زمن بعيد جداً؟!

كان الرعاة وبعض الأهالي قد شاهدوا تلك الرسومات المنحوتة على الصخر عبر أزمنة مختلفة؛ لكنهم، مثل العملة، لم يكونوا يعرفون أن في أسفلها وجدت قديماً جثة "المفضل بن أبي البركات" مطعونة بخنجر كان بجانبها، وأن القاتل، بعد أن أكمل مهمته السرية تلك، لم ينسَ أن يفتش "مدفن جهنم" بدقة ليعثر على صرة جلدية مليئة بالأوراق والمخطوطات قام بتسليمها عصر ذلك اليوم إلى "دار العز"، وبالتحديد إلى يد الملكة "أروى".

لكن هل كانت الصرة تلك هي نفسها الصرة التي وجدها المعماري اليهودي الماهر في ركام "الصبل" الذي قام بهدمه واستخدام أحجاره الصلبة في أساسات سمسرة المحرس؛ تحفته المعمارية التي أراد أن يقدمها مهراً للملكة "أروى" كما تقول الأساطير؟! ولماذا احتفظ بها "المفضل"، المشرف على بناء

"السمسرة"، بعد أن استلمها من ذلك المعماري، ولم يسلمها إلى الملكة "أروى"؟! هل وجد فيها ما يستدعي تملكها؟! ثم من أين جاءت إلى هذا المكان؟! هل دفنها هناك الداعية الفاطمي الذي كان ينازع الموت في ذلك "الصبل" متأثراً بجراحه قبل أن يأخذه ملاك فوق حصان مجنح إلى قمة جبل التعكر ويشفيه كما تقول الأساطير؟! وهل كان لهذا كله علاقة ما بالتمائم والطلاسم التي كتبها الراهب سُطيح وسلمها لـ"هند بنت عتبة"، قبل قرون طويلة، في ذلك اليوم الذي جاءته مع زوجها وأبيها لتبرئتها من تهمة الزنا، تلك التمائم التي تناقلتها الأجيال عبر السنوات والحقب، وظلت هدفاً للعديد من الطامحين والمغامرين واللصوص؟!...

أسئلةٌ كثيرة بلا إجابات اغترفها من قاع الوعاء... أسئلةٌ كلما حاولت الاقتراب من إجابات لها تتوالد عن المزيد منها، وتتناسخ متصادمة بجدران مختلفة الأحجام من المرايا الزمنية المعقدة.

ربما لو تسنى للعملة الاطلاع على تفاصيل البعثة العلمية الدنماركية، وعلى مذكرات الدكتور "جيم يونغ"، لاستطاع أن يكوّن صورة أكثر وضوحاً؛ ذلك أن الدكتور "يونغ" كان قد شاهد تلك الآثار في قمة جبل التعكر؛ وجدها مصادفة في إحدى رحلاته في المنطقة، واهتم بها كثيراً، قبل أن ينشغل عنها تماماً وينساها حتى ذلك اليوم الذي اعتقد أنه وجدها مرسومة بشكل جروح أسفل

رقبة ذلك الصبي الذي مات في حادثة السيارة... أقصد طبعاً "علي"...

الدكتور "يونغ"، الذي دوّن لاحقاً تلك النقوش باهتمام، وكتب ملاحظات لما كان يظنه شرحاً لها في إحدى مذكراته التي ظلت في المستشفى، لم يعرف أن عالم النبات السويدي "فورسكال" كان قد اهتم بها قبل قرنين من الزمن، بعد أن وجدها في رحلته الأخيرة إلى قمة التعكر وذكرته ببعض الأساطير اللاهوتية القديمة التي كان قد درسها قبل أن ينضم إلى البعثة العلمية... "فورسكال" الذي كان، وهو يكابد أعراض الحمى التي اعترته، قد توصل إلى فرضية شبه مؤكدة مفادها أن هذه الأشكال ما هي إلا رموز لطقوس وطلاسم خرافية مميتة، وإن محاولة فك شيفرتها للتوصل إلى أسرارها، وإلى القدرات الخارقة التي تمنحها، هي عملية محفوفة بمخاطر كثيرة.

ترى هل كان لموت "فورسكال" علاقة بهذه الأشكال؟! وهل كان لإصرار الدكتورة "مارتا"، والآخرين، على الوصول إلى ما تعنيه تلك النقوش هو سبب مقتلهم؟! لست متأكداً!... لكنني أعرف أن أسرار تلك النقوش ظلت تتداول بسرية عبر أجيال عديدة حتى تحولت مع الأيام إلى خرافات ضاعت تفاصيلها، مثل

بقية ما ضاع من حكايات وأساطير الأسلاف، وغاصت في قعر النسيان.

* * *

أجدني أسأل نفسي الآن: ما جدوى ما أخبرتكم به من هذه التفاصيل والأسئلة؟! وهل سيهمكم لو قلت لكم المزيد مما أعرفه عنها... أو بالأصح مما أجهله؟! هل سيهمكم مثلاً لو عرفتم أن "الفقيه سعيد الحرازي" دُفن على عجل بجنازة صغيرة بعد أن تقاسم الفقراء ما بحوزته من مال دون أن يأبه أحد لكتبه وبعض أوراقه، وبخاصة تلك القصاصة التي كانت بخط "المؤيد الرسولي"، كتبها له من سجنه في قلعة القاهرة، والتي جاء فيها:

"سيتدبر الحارس أمر لقائنا، والعشبة إن طحنَتها ووضعَتها بين الزاد أفادتك بإذن الله. أما بخصوص الكتاب فأسأل الله ألا يضعه بين يدي عمر، وسأحاول تحذيره على الرغم مما أصبح عليه من شك وعناد، جزاك الله عنا كل خير." .

هل سيهمكم لو كان لـ"الحاج مُحُمّد"، أو لبعض الشخصيات غريبة الأطوار، التي كانت تظهر فجأة في حياة قرى المنطقة وذاكرة أهلها، ثم تختفي منها فجأة، علاقة بالأمر؟! وهل سيهمكم أخيراً لو كان لكل تلك التفاصيل التي عرفتموها، أو تلك التي غابت عنكم،

علاقة بالمخطوطات التي تعاقب أفراد آل العارض في حفظها في "دار البخور" لمئات السنين؛ المخطوطات التي سلبت عبر الأزمان عقول الكثيرين، كان آخرهم "كريم"؛ "كريم" الذي ظل لسنوات مفتوناً بها بعد أن أطلعه عليها الشيخ العارض أول مرة، والتي دأب في غير تعقلٍ على فك شيفرة أخطر أسرارها، معتقداً بنجاحه في بلوغ ما تهبه من قدرات خارقة؛ قدرات كثيرة آمن بها، وجعل الوصول إلى بعضها غاية حياته، كالتواصل مع الموتى والانتقال إلى الحياة الأبدية؟! في البدء كان الأمر نتاج نزوة شبابية متهورة، أو هذا ما اعتقده الشيخ العارض على الأقل؛ لكنها تحولت مع مرور الأيام إلى هاجس عنيد، ومهمة مقدسة نذر "كريم" حياته من أجل تنفيذها، خاصة منذ أن رأى تلك النقوش مرسومة في قبة السماء بوضوح كنجوم تتلألأ في مساء ذلك اليوم الذي جثا فيه على ركبتيه بجانب ضريح زوجته "ريحانة"، دامع العينين، زائغ الفكر، ومكسور القلب.



ربما كنت سأحكي لكم المزيد لو لم أكن مضطراً إلى مغادرتكم... نعم... فها أنا اليوم، بعد خمسة عشر عاماً من وفاة "كريم"، وأربعة أيام من اختفاء قبره، أكتفي بما حكيته لكم؛ ليس لأن مياة "الجوهرة" توقفت لساعات فجر الأمس، ولا لأن العملة كان قد توفي صباح اليوم بعد عمر طويل؛ بل لأن حدثاً مريعاً وقع قبل ظهر اليوم وانتشر خبره سريعاً.

كانت جثة قتيل في إحدى غرف منزلٍ عتيق في مدينة "ذي السفال"، الواقعة أسفل جبل التعكر من الجهة الجنوبية الغربية، قد وجِدَت...

وبالصدفة سمعتُ أحد أهالي المدينة، جاء لحضور جنازة العملة، يقول لأحدهم إن الأهالي هناك يتداولون أن القتيل ربما انتحر في غرفته بعد أن أطلق الرصاص على نفسه وظل ينزف حتى وجدوه جثة هامدة بجانب النافذة...

هل كان ذلك كافياً لكي أصاب بالدهشة والخوف؟! ربما!... لكن ما زرع في قلبي الرعب حقاً هو أن القتيل كان قد رسم على

جدران الغرفة بكفيه المخضبتين بالدماء أشكالاً هندسية غريبة...

وبلهفة وقلق حاولت أن أصيخ السمع أكثر لأعرف اسم القتيل...

شعرت بكياني يرتعش رهبة...

قيل إن اسمه "كريم" ...

نعم... "كريم" ...

مثل اسمي تماماً!

الفهرست